﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾

الإصلاح

لا يُصلِحُ آخِرَ هَذِهِ الأُمَّةِ إلاّ مَا أَصلَحَ أوَّلَهَا

مجلة جامعة تصدر عن دار الفضيلة للنشر والتوزيع

فلسطين .. الحق المضاع

التحرير



الإعلام بخصائص أمّة الإسلام

عبد الغني عوسات

كنوز مخبوءة في تراثنا الجزائري

تعليق و تقديم : أبي عبد الرحمن محمود

السعر: 100 دج رقم الإيداع: 2006-3623 ISSN : 1112-6825

السنة الثانية . العدد السابع . محرم / صفر 1429 هـ الموافق لـ جانفي / فيفري 2008 م



أيُّها القرَّاء الكرام
نرحِّب بكلِّ مقالٍ علميٍّ مفيد
ونسعَد بكلِّ نَقْدٍ هادفٍ سديدٍ.

فمجلة «**الإصلاح**»
وسيلة لنشر العلم النَّافع

العنوان:

دار الفضيلة للنشر والتوزيع

حي دوزي، قطعة (01)، رقم (06) باب الزوار ـ الجزائر

الهاتف والفاكس: 63 94 51 (021)

المراسلات:

ص ب 22 مكرر ـ 16027 ـ الجزائر

darelfadhila@maktoob.com

التوزيع:

جوال: 523404 (070)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُه ونَسْتَعِينُه ونَسْتَغْفِرُه، ونعوذُ بالله منْ شرورِ أنْفُسِنَا ومِنْ سَيِّئَاتِ أعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لَهُ، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هَادِيَ له.

وأشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران: 102].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: 1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: 70 - 71].

أمَّا بَعْدُ:

فإنَّ خيرَ الحديثِ كتابُ الله، وأحسنَ الهَدْيِ هَدْيُ محمَّدٍ ﷺ، وشَرَّ الأمورِ مُحْدَثَاتُهَا، وكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وكلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ، وَكُلَّ ضَلالَةٍ في النَّارِ.

تجدون في هذا العدد:

فلسطين.. الحقُّ المضاع

التحرير

لا يخفى على ذي عقل أن أمتنا في هذه الآونة تعيش ظرفا عصيبا وجوا كئيبا، وتمر بمحنة اشتدت نارها اشتعالا ولهيبا.

فهذه الدماء التي تسيل وديانا وأنهارا هي دماء المسلمين، وهذه الأعراض التي تنتهك سرا وجهارا هي أعراض المسلمين، وهذه المقدسات التي تخرب هدما ودمارا هي مقدسات المسلمين، وسط تماطل وتواطؤ عالمي رهيب، تجمعت فيه أحقاد المعادين لدين الإسلام، وتجلى فيه التلاعب بقيم وحقوق الأنام، يقابله صمت إسلامي عجيب تراكمت عليه أسباب الخذلان والهوان، وتمادى به التفريط والتقصير والتجاهل والنسيان، وكأن المسلمين لم تحل بدارهم قارعة، ولم تنزل بهم نازلة، ولم تبك فيهم باكية، ولم تستلب منهم مقدسات، مع أن الواجب أن يقوم المسلمون قيام رجل واحد؛ لأنهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، وأرضهم أرض واحدة إذا ضاع شبر منها هبَّ الجميع لنجدته واسترجاعه.

وليس بجديد أن يطرق سمع العالم ما يحدث للمسلمين في أرض فلسطين في هذه الأيام، من غزو ساحق وحصار خانق دبر له على سمع من العالم وأنظاره من طرف يهود صهيون إخوان القردة والخنازير.

وقضية فلسطين كجميع قضايا المسلمين محنة امتحن الله بها ضمائرهم وهممهم وأموالهم ووحدتهم، وحق مضاع فرط أهله في الحفاظ عليه.

ابك مثل النساء ملكا مضاعا

لم تحافظ عليه مثل الرجال

إن مشكلة المسلمين اليوم ليست في عددهم، فهم كما قال النبي ﷺ: «بل أنتم كثير» وقد شبّه هذه الكثرة بغثاء السيل، وهو ما يبس من نبات الأرض فيجرفه السيل ليلقيه في الجوانب، إشارة إلى حقارته ودناءته، وشبههم به لقلة شجاعتهم وضعفهم وخذلانهم، وتفريطهم في الأخذ بأسباب النصر الحقيقية، والتي منها أن النصر والتمكين لهذه الأمة إنما هو ثمرة لإيمانها بالله وإقامة شرعه، فإذا مكنوا لدين الله في حياتهم مكن الله لهم في الأرض وأظهرهم على أعدائهم، قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا﴾ [النور: 55]، ومنها الإعداد لتقوية شوكة المسلمين ماديا واقتصاديا ليتمكنوا من مواجهة أعدائهم ورد العدوان عن أنفسهم كما قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: 60].

وهذا القتال لا يمكن أن يكون إلا إذا اجتمعت كلمة المسلمين كما اجتمعت كلمة الكفار على حرب المسلمين، قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٣٦﴾ [التوبة: 36]، قال ابن كثير: «أي كما يجتمعون إذا حاربوكم فاجتمعوا أنتم أيضا إذا حاربتموهم وقاتلوهم بنظير ما يفعلون».

والسؤال الذي يطرح نفسه في كل مرة: هل اجتمعت كلمة المسلمين اليوم على الحق الأبلج المبين، من الاعتقاد الصحيح والمنهج السليم والرؤية الصائبة في معاجلة المستجدات وقضايا الوضع الراهن، منطلقين من أصول الشرع المطهر كتابا وسنة وإجماعا؟

والجواب أن الكلمة لم تجتمع بعد، ولن تجتمع ما دام في صفهم من يدين الله بسب الصحابة والقول بعصمة الأئمة والتحزب للطوائف والجماعات وما إلى ذلك من المعتقدات الفاسدة والأفكار والتوجهات الدخيلة على أمة الإسلام ودينها.

ولابد أن يعي المسلمون أن الكفار لا يهدأ لهم بال، ولا يستقر بهم حال، ولا يضعون أسلحتهم ولا يكفون ألسنتهم بالسوء حتى يتخلى المسلمون عن دينهم ويهجروا إلى الأبد

شخصيتهم وتذوب هويتهم بين سائر الملل الضالة، قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة: 217].

والنبي ﷺ قد شخص الداء وأبان عن السبب الذي جعل الكفار لا يكترثون بتهديد المسلمين لهم ولا يهتمون بردود أفعالهم المنحصرة في المظاهرات الشعبية والتنديدات الكلامية والاجتماعات الطارئة، أما السبب الأول فلأن المهابة والخوف قد نزعهما الله من قلوب الكافرين، فلم يعد الرعب يقضُّ مضاجعهم ويزلزل حصونهم كما في سابق العهد التليد، كما قال تعالى: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الحشر: 151]، وكما قال أيضا: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ...﴾ [آل عمران: 151].

وأما السبب الثاني فهو أن الله يقذف في قلوب المسلمين الوهن، وهو الضعف والهوان والجبن والخذلان، وهذا ما ابتلوا به حقا، ووصفوا به الآن صدقا وعدلا، وموجب هذا الوهن وسببه كما بينه النبي ﷺ في قوله في الحديث: «حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ المَوْتِ».

إن القول لدى الله لا يبدل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11].

فلا سبيل لوقف جرائم الغادرين، ولا سلاح يرد كيد المعتدين إلا بمعالجة الأسباب التي أوصلتنا إلى الضعف والانتكاسة، والعمل على إزالتها وتعويضها بالأسباب الجالبة للنصر والتمكين، فإن القضايا العادلة والحقوق المشروعة لا تنال بالهوينا والضعف، ولا تنال بالأقلام والأفلام، والإعلام والأحلام، وإنما تنال بتغيير ما بالنفوس من اعوجاج وانحراف، وإصلاح العقول والقلوب قبل خوض المعارك والخطوب.

فاتحة العام الجديد مع فاتحة الكتاب المجيد

لزهر سنيقرة
إمام أستاذ

الحمد لله الَّذي أعزَّنا بالإسلام وشرَّفنا بالانتساب إلى ملَّة خير الأنام، نبيِّنا محمَّد خاتم الرُّسل والأنبياء العِظَام، الَّذي قال: «**مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ وَقَدْ أُعْطِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ البَشَرُ وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ القِيَامَةِ**»[1].

إنَّ خير ما نفتتح به عامنَا الجديد ما افتتح الله به كتابه، فقد افتتحه بسورة الفاتحة ترتيبًا لا نزولاً، وهي السَّبع المَثَانِي، نزلت من فوق سبع سموات فيها كلّ أحرف العربية إلاَّ سبعة أحرف، وتتألَّف لفظة الفاتحة من سبعة أحرف، وهذا أخذًا من معناها كما قال الشوكاني: «معنى الفاتحة في الأصل أوَّل ما من شأنه أن يبدأ به، ثمَّ أطلقت على أوَّل كلِّ شيء، وقال البخاري[2]: «وَسُمِّيَتْ أُمَّ الكِتَابِ: أَنَّهُ يُبْدَأُ بِكِتَابَتِهَا فِي المَصَاحِفِ، وَيُبْدَأُ بِقِرَاءَتِهَا فِي الصَّلاَةِ».

موضوعنا يتعلَّق إذًا بأعظم سورة في القرآن، في بيان فضلها، وعظم قدرها، ومنزلتها، وما حوته من المعاني الجليلة، والفوائد العظيمة، روى أحمد رحمه الله في «مسنده» عن أبي سعيد بن المُعَلَّى رضي الله عنه قال: كنت أصلِّي فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجبه حتَّى صلَّيت وأتيته، فقال: «**مَا مَنَعَكَ أَنْ تَأْتِيَنِي؟**»، قال: قلت: يا رسول الله! إنِّي كنت أصلِّي، قال: «**أَلَمْ يَقُلِ اللهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾** [الأنفال: 24]، ثمَّ قال: «**لأُعَلِّمَنَّكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي القُرْآنِ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ المَسْجِدِ**»، قال: فأخذ بيدي، فلمَّا أراد

(1) رواه أحمد (8472)، انظر: «صحيح الجامع» (5681).

(2) كتاب: التَّفسير من «صحيحه»: باب مَا جَاءَ فِي فَاتِحَةِ الكِتَابِ.

أن يخرج من المسجد قلت: يا رسول الله إنَّك قلت: «**لأُعَلِّمَنَّكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي القُرْآنِ**»، قال: «**نَعَمْ، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هِيَ: السَّبْعِ المَثَانِي وَالقُرْآن العَظِيم الَّذِي أُوتِيتُهُ**».

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أمُّ القرآن وأمُّ الكتاب، تدور حول ثلاثة محاور رئيسة مهمَّة:

المحور الأوَّل: التَّعريف بالله تعالى، وذلك في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾، ونتيجة هذا المحور هي أنَّه إذا عرف الإنسان ربَّه اتَّجه إلى عبادته بالبداهة؛ لأنَّ البشر إنَّما خلقوا للعبادة، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: 56].

المحور الثاني: توجيه العبادة له وحده عزَّ وجلَّ وعدم الالتفات إلى ما سواه، وهذا المحور يتمثل في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾.

المحور الثالث: توضيح أنَّ العبادة أشمل من أن تكون مجرَّد شعائر وتتمثل في قوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾.

* من فضلها أنَّ الله خصَّها عند نزولها بما لم تخصَّ به سورةٌ من القرآن، فقد روى مسلم في «صحيحه» (806)، عن ابن عبَّاس قال: «بَيْنَما جبريل قاعدٌ عند النَّبيِّ ﷺ سمع نقيضًا من فوقه، فرفع رأسه، فقال: هذا باب فُتِحَ من السَّماء فتح اليوم فنزل منه ملكٌ، فقال: هذا ملَكٌ نزل إلى الأرض لم ينزل قطُّ إلاَّ اليوم، فسلَّم وقال: «**أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا لم يُؤْتَهِمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ، فَاتِحَة الكِتَابِ وَخَوَاتِيم سُورَةِ البَقَرَةِ، لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُما إلاَّ أُعطِيتَهُ**».

وهي كما قال ابن القيِّم:

الشِّفاء التَّام والدَّواء النَّافع والرُّقية التَّامَّة، ومفتاح الغِنَى والفلاح، حافظة القوَّة ودافعة الهمِّ والغمِّ، والخوف والحزن لمن عرف مقدارها وأعطاها حقَّها وأحسن تنزيلها على دائه وعرف وجه الاستشفاء والتَّداوي بها.

ولمَّا وقع بعض الصَّحابة على ذلك رقى بها اللَّديغ فبرأ لوقته، فقال له النَّبيُّ ﷺ: «**وَمَا أَدْرَاكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ**».

ولعظم قدرها وشرف منزلتها فُرِضَت علينا في كلِّ ركعة من رَكعات صلواتنا، بل هي من أركانها الَّتي لا تصحُّ الصَّلاة إلاَّ بها لقوله - عليه الصَّلاة والسَّلام -: «**لاَ صَلاَةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الكِتَابِ**».

فمن قرأ بها ووافق تأمينه تأمين الملائكة غُفِرَ له ما تقدَّم قال ﷺ: «**إِذَا قَالَ أَحَدُكُمْ فِي**

الصَّلاَةِ آمين وَالمَلاَئِكَةُ فِي السَّمَاءِ آمِينَ فَوَافَقَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»[3].

ومما جاء في فضلها، ما رواه مسلم (395) عن أبي هريرة رضي الله عنه: «**قال الله تعالى: قَسَمْتُ الصَّلاَةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ العَبْدُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، قَالَ اللهُ: حَمِدَنِي عَبْدِي، فَإِذَا قَالَ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝﴾، قَالَ اللهُ: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، فَإِذَا قَالَ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝﴾، قَالَ اللهُ: مَجَّدَنِي عَبْدِي، فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾، قَالَ اللهُ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝﴾، قَالَ اللهُ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ**».

يدلُّ على أنَّ الله يستمع لقراءة المصلِّي حيث كان مناجيا له، ويردُّ عليه جواب ما يناجيه به كلمةً كلمةً.

فأوَّل الفاتحة حمدٌ، ثمَّ ثناءٌ، وهو تثنية الحمد وتكريره، ثمَّ تمجيد، وهو الثناء على الله بأوصاف المجد والكبرياء والعظمة.

فقول الله في بدايتها ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾: أي أبتدئ بكلِّ اسم لله تعالى؛ لأنَّه لفظ اسم مفرد ومضاف فيعمُّ جميعَ أسماء الله تعالى، وأسماء الله كلُّها حسنى تدلُّ على عظمته وجلاله.

والجار والمجرور متعلِّق بمحذوفٍ متأخِّرٍ يقدَّرُ بما يناسب، والتَّقدير: باسم الله أقرأ، والباء للاستعانة.

﴿ٱللَّهِ﴾: اسم الله الخاصّ به، أي: «المألوه»، ومعناه: المعبود محبَّةً وتعظيمًا.

﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝﴾: الرَّحمن ذُو الرَّحمة الواسعة، والرَّحيم الموصل رحمته إلى من شاء.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: لم يذكر له هنا ظرفًا زمانيًّا ولا مكانيًّا، أما المكان فمثل قوله: ﴿**وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ**﴾ [الروم: 18]، وأمَّا الزَّمان فمثل قوله: ﴿**وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ**﴾ [القصص: 70].

﴿ٱلْحَمْدُ﴾: «أل» للاستغراق، تستغرق جميع المحامد، وهو ثناء أثنى به تعالى على نفسه، وفي ضمنه أمر عباده أن يثنوا عليه به، وهو الاعتراف للمعبود بصفات الكمال مع محبَّته وتعظيمه[4].

﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝﴾: «ربُّ العالمين»: خالقهم

(3) رواه مسلم (410).

(4) «أضواء البيان» (31/1).

والمدبِّر لشؤونهم، «العالمين»: كلُّ ما سوى الله، ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٣ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ [الشعراء: 23 ـ 24].

قال بعض العلماء: اشتقاق العالم من العلامة؛ لأنَّ وجود العالم علامةٌ على وجود خالقه متَّصفًا بصفات الجلال والكمال.

﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾: قرئ «مِلك»، و«مالك»، و«ملْك» بسكون اللاَّم، و«مَلَكَ» بصيغة الفعل، وقد اختلف العلماء أيُّما أبلغ: مِلك، أو مالك؟ فقيل: إنَّ ملكَ أعمُّ، وأبلغ من مالك، إذ كلّ ملك مالك، وليس كلّ مالك ملكًا، ولأن أمر الملك نافذ على المالك في ملكه حتَّى لا يتصرّف إلاَّ عن تدبير الملك، قاله أبو عبيد، والمبرّد، ورجَّحه الزَّمحشري.

وقيل: مالك أبلغ؛ لأنَّه يكون مالكًا للنَّاس، وغيرهم، فالمالك أبلغ تصرُّفًا، وأعظم.

وقال أبو حاتم: إنَّ مالكًا أبلغ في مدح الخالق من ملك، وملك أبلغ في مدح المخلوقين من مالك؛ لأنَّ المالك من المخلوقين قد يكون غير ملك، وإذا كان الله تعالى مالكًا كان ملكًا.

و﴿يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾: يوم الجزاء من الرَّبِّ سبحانه لعباده كما قال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٨ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ۝١٩﴾ [الانفطار: 17 ـ 19]

وهذه الإضافة إلى الظَّرف على طريق الاتِّساع، كقولهم: «يا سارق اللَّيلة أهل الدَّار».

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾: إشارة إلى تحقيق معنى «لا إله إلاَّ الله» المركَّب من:

النَّفي: خلع جميع المعبودات من غير الله عزَّ وجلَّ في جميع أنواع العبادات.

والإثبات: إفراد ربِّ السَّموات والأرض بجميع أنواع العبادات على الوجه المشروع.

أيّ لا نعبد إلاَّ إيَّاك.

و«العبادة»: هي التَّذلُّل للمعبود محبَّةً وتعظيمًا؛ بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾: أي لا نطلب العون إلاَّ منك وحدك؛ لأنَّ الأمر كلَّه بيدك، فيه إشارةٌ إلى التَّوكُّل عليه ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: 123].

قال ابن القيِّم ـ رحمه الله تعالى ـ: فهذه الأمور الثلاثة أصلُ سعادة العبد وفلاحه، وهي معنى قول العبد: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾، فأسعد الخلق أهلُ العبادة والاستعانة، والهداية إلى المطلوب، وأشقاهم من عدم هذه الأمور الثلاثة.

ومنهم من يكون له نصيب من ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

فالأوَّل: من معنى ألوهيَّته، والثاني: من معنى ربوبيَّته، فإنَّ الإله هو الَّذي تؤلهه القلوب، محبَّة وتعظيمًا وإنابةً وإجلالاً وإكرامًا...

والرَّبُّ هو الَّذي يربِّي عبده، فيعطيه خلقه، ثمَّ يهديه إلى مصالحه، فلا إله إلاَّ هو، ولا ربَّ سواه، وربوبيَّة غيره أبطل الباطل!

ثمَّ قوله: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾ يتضمَّن طلب الهداية، ممَّن هو قادر عليها وهي بيده إن شاء أعطاها عبده وإن شاء منعه إيَّاها، و«الهداية»: معرفة الحقِّ والعمل به، فمن لم يجعله الله عالمًا بالحقِّ عاملاً به لم يكن له سبيلٌ إلى الاهتداء.

فهو سبحانه المتفرِّد بالهداية الموجبة للاهتداء، الَّتي لا يتخلَّف عنها ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: 56]، وأما قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى: 52]، فهذه هداية الدَّعوة والتَّعليم والإرشاد.

المراد بالصِّراط: الصِّراط المعنوي، وهو دين الله تعالى؛ لأنَّه يوصل إليه وإلى دار كرامته.

﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾: أتممتها عليهم، وهي الإحسان إليهم بهدايتهم الصِّراط المستقيم.

لم يبيِّن الله عزَّ وجلَّ هنا من هؤلاء الَّذين أنعم عليهم، وبيَّن ذلك في قوله تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء: 69].

ولمَّا كان تمام النِّعمة على العبد إنَّما هو بالهدى والرَّحمة، كان لها ضدَّان: الضَّلال والغضب.

فأمرنا سبحانه أن نسأله كلَّ يوم وليلة مرَّات عديدة أن يهدينا صراط الَّذين أنعم عليهم، وهم أولو الهدى والرَّحمة، ويجنِّبنا طريق المغضوب عليهم «وهم ضدّ المرحومين»، وطريق الضَّالين «وهم ضدّ المهتدين».

ولهذا كان هذا الدُّعاء من أجمع الدُّعاء وأفضله وأوجبه.

قال شيخ الإسلام: والصِّراط المستقيم قد فُسِّر بالقرآن وبالإسلام وطريق العبودية، وكلّ هذا حقٌّ، فهو موصوف بهذا وبغيره، فالقرآن مشتمل على مهمَّات وأمور دقيقة ونواهٍ وأخبار وقصص وغير ذلك، إن لم يهد الله العبد إليها فهو جاهل بها ضالٌّ عنها، وكذلك الإسلام وما اشتمل عليه من المكارم والطَّاعات والخصال المحمودة، وكذلك العبادة وما اشتملت عليه.

فحاجة العبد إلى سؤال هذه الهداية ضروريَّة

في سعادته ونجاته وفلاحه، بخلاف حاجته إلى الرِّزق والنَّصر، فإنَّ الله يرزقه، فإذا انقطع رزقه مات، والموت لابدَّ منه، فإذا كان من أهل الهداية كان سعيدًا قبل الموت وبعده وكان الموت موصلاً إلى السَّعادة الأبديَّة، وكذلك النَّصر إذا قدر أنَّه غُلِب حتَّى قتل فإنَّه يموت شهيدًا وكان القتل من تمام النِّعمة، فتبيَّن أنَّ الحاجة إلى الهدى أعظم من الحاجة إلى النَّصر والرِّزق، بل لا نسبة بينهما؛ لأنَّه إذا هدي كان من المتَّقين ومن يتَّق الله يجعل له مخرجًا ويرزقه من حيث لا يحتسب، وكان ممَّن ينصر الله ورسوله، ومن نصر الله نصره الله وكان من جند الله وهم الغالبون، ولهذا كان هذا الدُّعاء هو المفروض.

﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ...﴾: وهم اليهود والنَّصارى.

واليهود والنَّصارى وإن كانوا ضالِّين جميعًا مغضوبًا عليهم، فإنَّ الغضب خصَّ به اليهود؛ لأنَّهم يعرفون الحقَّ وينكرونه، ويأتون الباطل عمدًا! فكان الغضب أخصّ صفاتهم.

والنَّصارى جهلة لا يعرفون الحقَّ، فكان الضَّلالَ أخصُّ صفاتهم.

ومن بين ما ذكر في أنَّ اليهود هم القوم المغضوب عليهم قوله تعالى: ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ [البقرة: 90]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [الأعراف: 152].

ويبيِّن أنَّ الضَّالِّين النَّصارى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾ [المائدة: 77].

فكمال الإنسان وسعادته لا تتمُّ إلاَّ بعد استكماله لقوَّتيه العلميَّة والعملية الإراديَّة، وقد تضمَّنتها سورة الفاتحة وانتظمتها أكمل انتظام.

فإن: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾﴾ يتضمَّن الأصل الأوَّل، وهو معرفة الرَّبِّ ومعرفة أسمائه وصفاته.

والأسماء المذكورة في السُّورة هي أصول الأسماء الحسنى: الله، الرَّبّ، الرَّحمن.

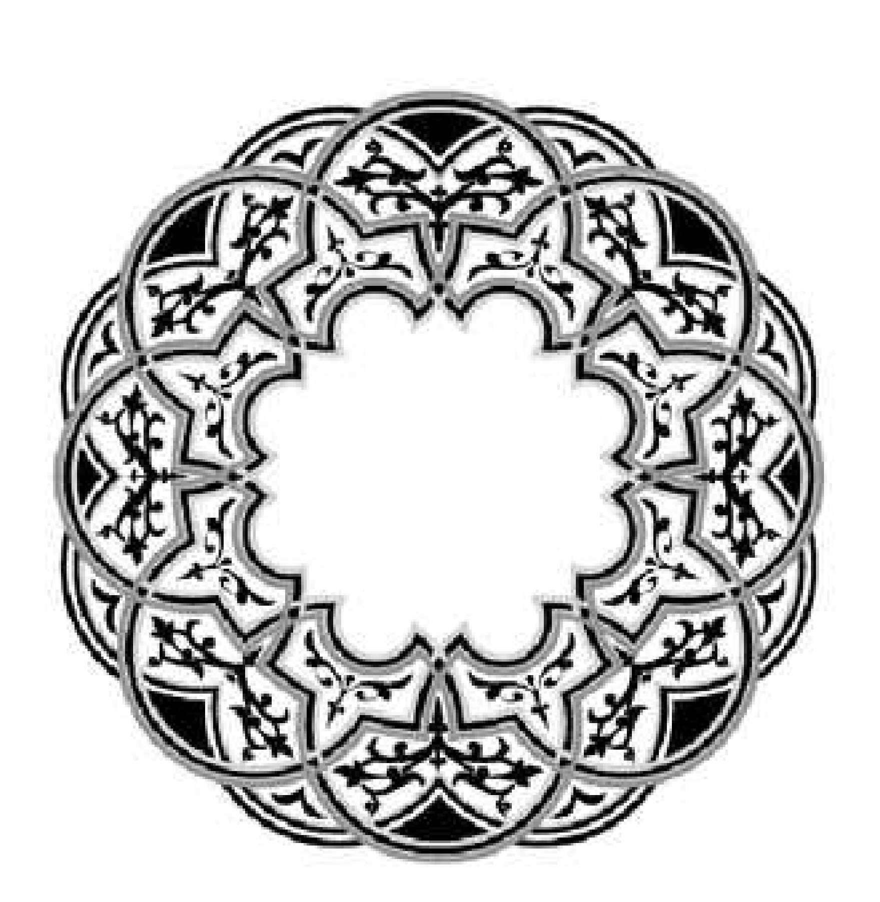
﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ ...﴾ يتضمَّن معرفة الطَّريق الموصلة إليه: عبادته واستعانته.

﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ...﴾ يتضمَّن بيان أنَّ العبد لا سبيل له إلى سعادته إلاَّ باستقامته على الصِّراط المستقيم.

﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ ...﴾ يتضمَّن بيان طرفي الانحراف عن الطَّريق المستقيم، وأنَّ الانحراف إلى أحد الطَّرفين انحراف إلى الضَّلال الَّذي هو فساد العلم والاعتقاد، والانحراف إلى الطَّرف الآخر انحراف إلى الغضب الَّذي سببه فساد القصد والعمل.

قال ابن القيِّم ـ رحمة الله عليه ـ: «فأوَّل السُّورة رحمة، وأوسطها هداية، وآخرها نعمة، وحظّ العبد من النِّعمة على قدر حظّه من الهداية، وحظُّه منها على قدر حظّه من الرَّحمة، فعاد الأمر كلُّه إلى نعمة ورحمة، والنِّعمة والرَّحمة من لوازم ربوبيَّته فلا يكون إلاَّ رحيمًا منعمًا، وذلك من موجبات إلهيَّته، فهو الإله الحقُّ وإنْ جحده الجاحدون وعدل به المشركون.

فمن تحقّق بمعاني الفاتحة علمًا ومعرفةً، وعملاً وحالاً، فقد فاز من كماله بأوفر نصيب وصارت عبوديَّته عبوديَّة خاصَّة، وارتفعت درجته عن عوام المتعبِّدين، والله المستعان».



ولذا فالمقصد الأعظم والغاية الأهمُّ في تعاملنا مع كتاب ربِّنا هي فهم معانيه وتدبُّر آياته، فإنَّ القرآن هو عصمة المؤمن، به نجاته وسعادته وقيام دينه ودنياه ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: 29].

من الهدي النَّبوي:

«...والنّصح لكلِّ مسلم»

د/ صالح عومار
أستاذ علوم الحديث بجامعة الأمير عبد القادر بقسنطينة

إنّ النُّصح من أبرز وظائف الرُّسل وأجلِّها، فما من رسولٍ ولا نبيٍّ بعثه الله تعالى إلاّ واجتهد في نُصْح أمَّته، وإبلاغهم دعوة الحقِّ، وهدايتهم سبيل الرَّشاد... وإسداءُ النَّصيحة مَكْرُمَةٌ تدلُّ على طيب معدنٍ، وعلى حبِّ الخير للنَّاس، وكذلك كانت صفات الرُّسل والأنبياء.

وأصل النُّصح في اللُّغة: الخُلوص، يقال: نصحتُه، ونصحتُ له، ونصحتُ العسلَ: إذا خَلَّصتُه من الشَّمع، وناصِحُ العسل خالِصُه الَّذي لا يتخلَّله ما يشوبُه، والنُّصح والنَّصيحة خلاف الغشّ[1].

و«النَّصيحة: كلمة يُعبَّر بها عن جملة: هي إرادة الخير للمنصوح له، وليس يمكن أن يُعَبَّر عن هذا المعنى بكلمة واحدة تجمع معناه غيْرها»[2].

وإسداء النَّصيحة من أبرز مظاهر الدَّعوة والتَّعليم والإرشاد؛ إذ النَّاصح غالبًا ما يُبدي من النَّصيحة والإرشاد خلافَ ما يهواه المنصوح، إصلاحًا للمجتمعات وهدايةً للخلق، وهكذا كانت سيرة الأنبياء ـ عليهم السَّلام ـ مع أقوامهم.

قال ـ سبحانه وتعالى ـ عن نبيِّه هود عليه السلام:

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ إلى قوله: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأعراف: 65 ـ 68].

وقال سبحانه عن نبيِّه نوح عليه السلام:

﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ

(1) ينظر: «معجم مقاييس اللغة» لابن فارس (1030)، و«النِّهاية في غريب الحديث والأثر» لابن الأثير الجزري (5/ 52)، و«جامع العلوم والحكم» لابن رجب (1/ 219).

(2) «النهاية في غريب الحديث والأثر» (5/ 52).

﴿يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [هود: 34].

وقال عزَّ وجلَّ عن نبيِّه صالح عليه السلام: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأعراف: 79].

وقال عن الرَّجل الصَّالح: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [القصص: 20].

فهذا هدي الأنبياء عليهم السَّلام، والَّذين تمثلوا أرقى صور الدَّعوة وحبّ الخير للنَّاس؛ فساسوا أممهم بالحقِّ، وأرشدوهم إلى الخير، وحذَّروهم من الشَّرِّ والفساد... وعلى منهاجهم بُعث خاتم الأنبياء ﷺ، وعلى هداهم كان هديه - عليه الصَّلاة والسَّلام -: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: 90].

فما فتئ ﷺ يُوجِّه أمَّته ويُرشدها إلى التَّحلِّي بهذا المبدأ العظيم، فقد صحَّت عنه أحاديثُ قوليَّة عديدة تضمَّنت تشريعات وتوجيهات للأمَّة في هذا الأصل المهمِّ، منها:

ما رواه مسلم في «صحيحه» عن تَميمِ ابن أَوْسٍ الدَّاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«أَلاَ إِنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ، أَلاَ إِنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ، أَلاَ إِنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ، قالوا: لِمَنْ يا رسول الله؟ قال: **لِلَّهِ، وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَعَامَّتِهِمْ»**[3].

فمعنى النَّصيحة للَّه سبحانه وتعالى؛ صحَّة الاعتقاد في وحدانيَّته، وإخلاص النيَّة في عبادته، والقيام بطاعاته ومحابِّه، والحبُّ فيه والبغضُ فيه...

والنَّصيحة لكتابه؛ الإيمان به وتعظيمه وتنْزيهه، وتعلّم معانيه وتدبُّرها كما أحبَّ الله أن تُفهم عنه، والوقوف مع أوامره ونواهيه، والدُّعاء إليه، وذبُّ تحريف الغالين عنه...

والنَّصيحة لرسوله؛ الإيمان به وبما جاء به، والتَّمسُّك بطاعته، وإحياء سنَّته ونشر علومها، والتَّخلُّق بأخلاقه، والتَّحلي بآدابه، وموالاة من والاها وحبُّه، ومعاداة من عاداها وتديُّن بخلافها، ومحبَّة آله وصحابته...

والنَّصيحة لأئمَّة المسلمين؛ معاونتهم على الحقِّ، وطاعتهم فيه، وتذكيرهم به، وتنبيههم في رِفْقٍ ولطف، والدُّعاء لهم بالتَّوفيق، وحبُّ اجتماع الأمَّة عليهم، وكراهة افتراق الأمَّة عليهم، وحبُّ إعزازهم في طاعة الله عزَّ وجلّ...

والنَّصيحة لعامة المسلمين؛ أن يحبَّ لهم ما

(3) رواه مسلم (205)، وأحمد (4/ 102)، والنسائي (4199، 4200)، وابن حبان (4574، 4575).

يحبُّ لنفسه، وإرشادهم إلى مصالحهم، وتعليمهم أمور دينهم ودنياهم، وسَتْر عَوْراتِهم، ونُصْرَتُهم على أعدائهم، والذبُّ عنهم، ومُجانبة الغشِّ والحسد لهم، وردُّ من زاغ منهم عن الحقِّ بالتلطُّف، والرِّفق في الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر محبَّةً لإزالة فسادهم...

ومن كلِّ هذا يتبيَّن عِظَمُ موقع هذا الحديث النَّبوي في حياة المسلمين، وما فيه من إرشادات عظيمة، وهدي قويم، وقيم مُثلى لم يعرفها البشر إلى اليوم، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: 107].

وفي «صحيح ابن حبَّان» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ اللهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلاَثًا، وَيَسْخَطُ لَكُمْ ثَلاَثًا، يَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا، وَأَنْ تُنَاصِحُوا مَنْ وَلاَّهُ اللهُ أَمْرَكُمْ، وَيَسْخَطُ لَكُمْ: قِيلَ وَقَالَ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ**»[4].

فهذا يؤكِّد أنَّ مبدأ المناصحة لولاة الأمر، ولعموم المسلمين، أصلٌ عظيم، لا تستقيم حياة الأمَّة الإسلاميَّة في مختلف جوانبها إلاَّ بإحيائه

(4) رواه مالك في «الموطأ» (2089)، وابن حبَّان في «صحيحه» (3388)، وأصله في «صحيح مسلم» (4578).

والاهتداء به، وبذلك بلغ سلف هذه الأمَّة درجةَ الرَّاشدين والصِّدِّيقين.

فقد قال ابن عُلَيّة في قول بكر المزني: «ما فاق أبو بكر رضي الله عنه أصحابَ رسول الله ﷺ بصوم ولا صلاة، ولكن بشيءٍ كان في قلبه»، قال: الَّذي كان في قلبه؛ الحبُّ لله عزَّ وجلَّ، **والنَّصيحةُ في خلقه**.

وقال الفضيل بن عياض: «ما أدرك عندنا مَنْ أدرك بكثرة الصَّلاة والصِّيام، وإنَّما أدرك عندنا؛ بسَخاءِ الأنفُس، وسلامة الصُّدور، **والنُّصح للأمَّة**»[5].

وفي «الصَّحيحين» من حديث جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال:

«بايَعْتُ رسولَ الله ﷺ على السَّمع والطَّاعة فيما استطعتُ، وإقام الصَّلاة، وإيتاء الزَّكاة، **والنُّصح لكلِّ مسلمٍ**»[6]، وفي رواية عند البخاري قال جريرٌ: «...أمَّا بعدُ فإنِّي أتَيْتُ النَّبيَّ ﷺ قلتُ: أبايعُك على الإسلام، فشَرَطَ عليَّ: **والنُّصح لكلِّ مُسْلمٍ**، فبايعتُه على هذا...».

فممَّا يؤكِّد قيمة هذا المبدأ في حياة هذه

(5) «جامع العلوم والحكم» لابن رجب الحنبلي (1/225).

(6) رواه البخاري (57، 58، 524، 1401، 2157، 2714، 2715، 7204)، ومسلم (208).

الأمَّة، أنَّ النَّبيَّ ﷺ إنَّما كان يأخذ البيعة من أصحابه إذا أسلموا على مبادئ وقواعد أساسيَّة في حياة الأمَّة الإسلاميَّة ودينها، ولم يكن ليأخذ البيعة على كلِّ واجب أو فرض، وإنَّما كان يُبايع أصحابَه على مهمَّات الأمور الَّتي لا تستقيم حال المسلمين إلاَّ بها، وبلزومها.

والنُّصح حقُّ المسلم على المسلم، وليس مجرَّد تكرّم ومنَّة يتفضَّل بها عليه، ففي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال:

«حَقُّ المُسْلِمِ عَلَى المُسْلِمِ سِتٌّ، قيل: ما هنَّ يا رسول الله؟ قال: إِذَا لَقِيتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، وَإِذَا دَعَاكَ فَأَجِبْهُ، وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصَحْ لَهُ، وَإِذَا عَطَسَ فَحَمِدَ اللهَ فَسَمِّتْهُ، وَإِذَا مَرِضَ فعُدْهُ، وَإِذَا مَاتَ فَاتَّبِعْهُ»[7].

ثمَّ إنَّ الخطأ واقعٌ لا محالة من الإمام أو المسؤول، كما في «الصَّحيحين» من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِذَا حَكَمَ الحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ»[8].

(7) رواه مسلم (5778).

(8) رواه البخاري (7352)، ومسلم (4584).

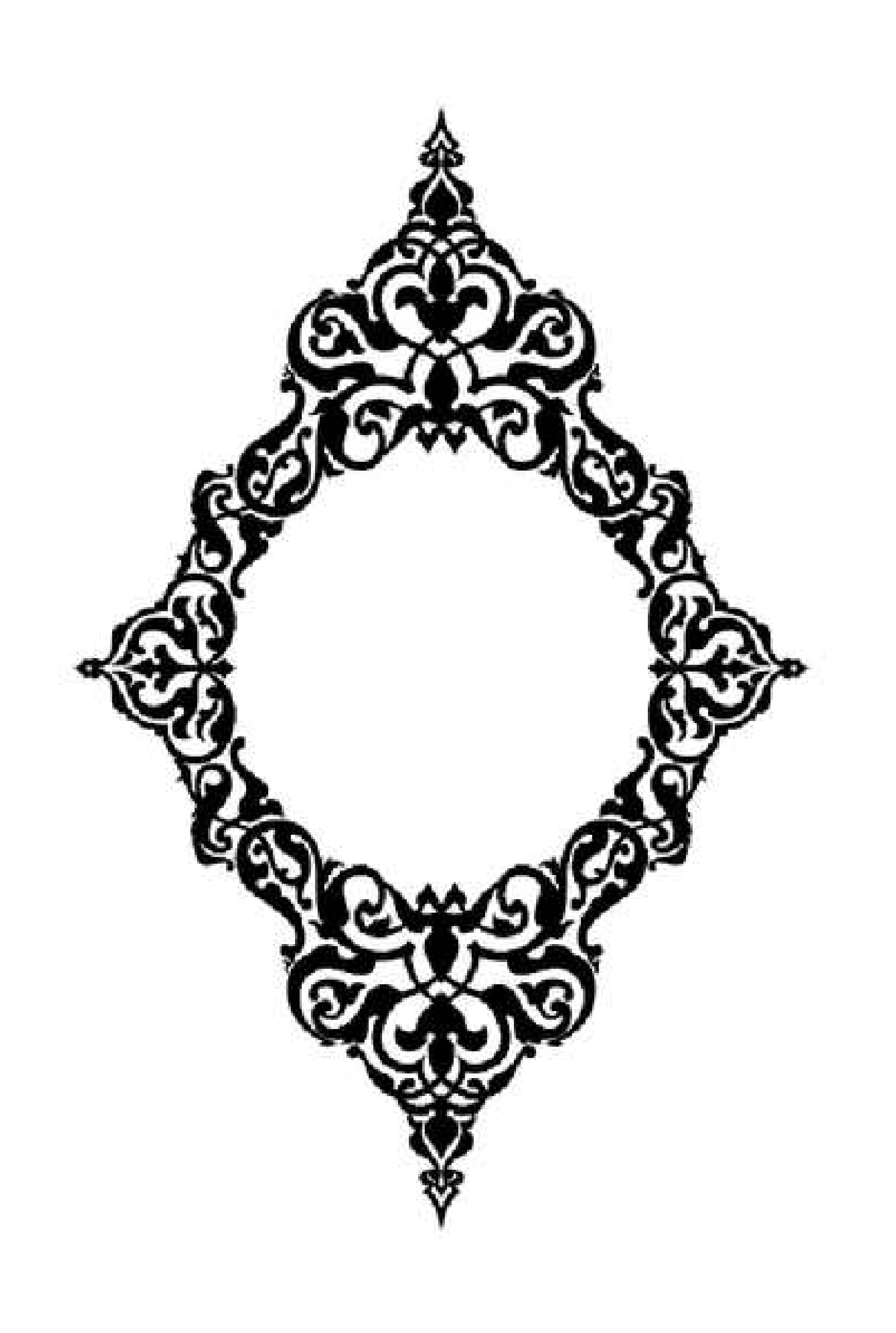
فلا مناصَ إذًا من إصلاحه - أي الخطأ - بالنُّصح والتَّوجيه والإرشاد، وهكذا يطيب قلب النَّاصح والمنصوح، ولهذا المعنى البديع جاء التَّوجيه النَّبوي في الحديث الَّذي يرويه عبد الرَّحمن بن أبان بن عثمان بن عفَّان عن أبيه أبان قال:

«خرج زيدُ بن ثابت رضي الله عنه من عند مروان قريبًا من نصف النَّهار، فقلتُ: ما بعث إليه إلاَّ لشيء سأله، فقُمْتُ إليه فسألته، فقال: أجلْ، سألَنا عن أشياء سمعناها من رسول الله ﷺ قال:

«نَضَّرَ اللهُ امْرءاً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَحَفِظَهُ وَبَلَّغَهُ غَيْرَهُ، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بفَقِيهٍ، ثَلاَثٌ لاَ يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ: إِخْلاَصُ العَمَلِ للهِ، وَمُنَاصَحَةُ وُلاَةِ الأَمْرِ، وَلُزُومُ الجَمَاعَةِ فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ»[9].

يقول الزَّمخشري: «...والغِلُّ: الحقد الكامن في الصَّدر، والإغلالُ: الخيانة، والوُغول: الدُّخول

(9) **حديث صحيح**، رواه: الشَّافعي «الرسالة»، المسألة رقم 1102، وأحمد (183/5)، والترمذي (2656)، والدارمي: المقدمة، باب: الاقتداء بالعلماء (235)، وابن ماجه: «المقدمة، باب: من بلغ علما (230)، وابن حبَّان في «صحيحه» (67)، وابن أبي عاصم في «كتاب السنة» (94)، وابن عبد البرِّ في «جامع بيان العلم وفضله» (175/1)، وصحَّحه الألباني في «ظلال الجنَّة» (94).



في الشَّرِّ، والمعنى: أنَّ هذه الخلال يُستَصْلَحُ بها القلبُ؛ فمن تمسَّك بها طَهُرَ قلبُه من الدَّغل والفساد...»[10].

ويقول الشَّيخ أحمد شاكر: «قوله: «يُغِل» بفتح الياء وضمِّها مع كسر الغين فيهما، فالأوَّل من «الغِلّ» وهو الحقد، والثاني من «الإغلال» وهو الخيانة، والمراد أنَّ المؤمن لا يخون في هذه الثلاثة، ولا يَدْخُلُه ضِغْنٌ ـ حِقدٌ وعداوة ـ يُزيله عن الحقِّ حين يفعل شيئًا من ذلك، قاله في «شرح المشكاة»»[11].

فإحياء مثل هذه الهدايات النَّبويَّة، ونشرها بين مختلف طبقات النَّاس، وتعليمها فئات الأمَّة، ثمَّ التزامها بها، لا شكَّ ولا ريب أنَّه يقيها الكثير من الضَّغائن، والأحقاد، والتَّربُّصات والدَّسائس ضدَّ الحكَّام والمسؤولين...

ومبدأ النُّصح له آدابه وضوابطه، بيَّنها النَّبيُّ ﷺ فيما صحَّ عنه، وله ثماره وفوائده... كما أنَّ عدمَ قَبول النَّصيحة خلافُ الهدي النَّبوي، وله آثاره السَّيِّئة...

---

(10) «الفائق في غريب الحديث» (72/3).

(11) «حاشية الرسالة» (ص 401، 402).

مباحث الإيمان في حديث

«إذا زنى العبد خرج منه الإيمان فكان فوق رأسه كالظلة...»

سليم مجوبي
طالب في مرحلة الماجستير بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية

إنَّ طريقة أهل السُّنَّة والجماعة في أصول الدِّين وفروعه اتِّباع ما جاء به الكتاب والسُّنَّة على فهم السَّلف الصَّالح، واتِّباع الدَّليل المحكم وردُّ المتشابه إلى المحكم والمجمل إلى المفصَّل والعام إلى الخاصِّ والمطلق إلى المقيَّد وحمل كلام الله ورسوله بعضه على بعض وتفسير بعضه ببعض جمعًا بين الأدلَّة ودفعًا لتوهُّم التَّعارض بينها.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: 82].

فكان أهل السُّنَّة بذلك أمَّةً وسطًا بحقٍّ بين الغالي والجافي والمفْرِط والمفَرِّط.

ولا تغل في شيء من الأمور واقتصد
كلا طرفي قصد الأمور ذميم

وأهل السُّنَّة في مباحث الإيمان وسط بين المرجئة الَّذين غلَّبوا نصوصَ الوعد وأهملوا نصوص الوعيد، وبين الخوارج والمعتزلة الَّذين غلَّبوا نصوص الوعيد وأهملوا نصوص الوعد.

فهم أسعد النَّاس بالدليل؛ لأنَّهم أخذوا بالنُّصوص جميعًا، فكانوا على الحقِّ المستقيم والصِّراط القويم.

ومن نصوص الوعيد الَّتي غلط فيها المخالفون لأهل الحقِّ، حديث أبي هريرة، قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا زَنَى العَبْدُ، خَرَجَ مِنْهُ الإِيمَانُ فَكَانَ فَوْقَ رَأْسِهِ كَالظُّلَّةِ فَإِذَا انْقَلَعَ مِنْهَا رَجَعَ إِلَيْهِ الإِيمَانُ**»[1].

وقد اخترت هذا الحديث لدراسته وبيان ما يتعلَّق به من مباحث الإيمان لأسباب:

- بيان معنى الحديث كما فسَّره السَّلف.
- بيان خطأ تفسير الخوارج والمعتزلة لهذا الحديث وأمثاله.

(1) أخرجه أبو داود (4690)، والحاكم (72/1)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (509).

- بيان فساد منهج الخوارج في تغليبهم لأحاديث الوعيد.

- الرَّدّ على المخالفين لأهل السُّنَّة في مسائل الإيمان.

أسأل الله عزَّ وجلَّ التَّوفيق والسَّداد في القول والعمل، والحمد لله ربِّ العالمين.

◆ **تمهيد: وفيه فصلان.**

الفصل الأوّل: تعريف الإيمان.

المبحث الأوَّل: تعريف الإيمان عند أهل السُّنَّة.

لغة: اختلفت تعريفات أهل اللُّغة للإيمان، فقيل: هو تصديق القلب المتضمِّن للعلم بالمصدَّق به[2].

وقيل: هو من الأمن ضدَّ الخوف[3].

وقيل: هو الإقرار[4].

وقد أنكر شيخ الإسلام أن يكون الإيمان مرادفًا للتَّصديق في اللُّغة من وجوه:

أحدها: أنَّه يقال للمخبر إذا صدَّقته: صدَّقه ولا يقال: آمَنَه ولا آمَنَ به، بل يقال: آمَنَ لَه.

الثاني: أنَّه ليس مرادفًا للفظ التَّصديق في المعنى، فالتَّصديق يستعمل في الخبر عن الغيب والمشاهدة؛ والإيمان لا يستعمل إلاَّ في الغيب.

الثالث: أنَّ الإيمان في اللُّغة يقابله الكفر، والتَّصديق يقابله التَّكذيب، ولا يقابل الإيمان لفظ التَّكذيب قطُّ.

قال: وتفسيره بلفظ الإقرار أقرب من تفسيره بلفظ التَّصديق، مع أنَّ بينهما فرقًا[5].

وقال أيضًا: وأمَّا الإيمان فأصله تصديقٌ وإقرارٌ ومعرفةٌ[6].

- **شرعًا:** وأمَّا التَّعريف الشَّرعي؛ فالإيمان قول باللِّسان واعتقاد بالجنان وعمل بالأركان.

وقد تنوَّعت عبارات السَّلف في ذلك، فقالوا: قولٌ وعمل، قولٌ وعمل ونيَّة، قول وعمل ونيَّة واتِّباع السُّنَّة.

وكلُّ هذه العبارات صحيحة، فإذا قيل: قولٌ وعمل، دخل في القول قولُ القلب واللِّسان، وفي العمل عمل القلب والجوارح.

وإذا قيل: قول وعمل ونيَّة؛ فلأنَّ العمل قد لا يفهم منه النيَّة فزيدت لذلك.

وإذا قيل: واتِّباع للسُّنَّة؛ فلأنَّ ذلك لا يكون محبوبًا لله إلاَّ باتِّباع السُّنَّة[7].

(2) «لسان العرب» (21/13)، «تاج العروس» (135/9).

(3) «الصحاح» (2071/5).

(4) «الإيمان» لابن تيمية، ص (227 ـ 229).

(5) «الإيمان» لابن تيمية، ص (227 ـ 229).

(6) المصدر نفسه (ص207).

(7) المصدر السابق ص (137 ـ 138).

المبحث الثاني: تعريف الإيمان عند المخالفين[8].

لقد خالفَ أهلَ السُّنَّة في تعريف الإيمان طوائفُ، منهم:

1 ـ **غلاة الجهميَّة:** والإيمان عندهم هو المعرفة فقط، من غير إقرارٍ ولا قول لسان، ولا تصديق قلب ولا عمل جوارح، والكفرُ عندهم هو الجهل.

2 ـ **الكراميَّة:** والإيمان عندهم هو قول باللِّسان فقط.

3 ـ **المرجئة**[9] **وجمهور الأشاعرة والجهميَّة:** الإيمان هو التَّصديق.

4 ـ **مرجئة الفقهاء وابن كُلاَّب:** الإيمان هو تصديق القلب وقول اللِّسان.

5 ـ **الخوارج والمعتزلة وبعض الأشاعرة:** والإيمان عندهم قول وعمل واعتقاد؛ لكنَّ الخوارج والمعتزلة يقولون: هو وحدةٌ واحدة لا يتجزَّأ ولا يتبعَّض.

والطَّوائفُ الأربعة الأولى كلُّهم يجمعهم وصفُ الإرجاء.

وحقيقة مذهب هؤلاء جميعًا يتجلَّى في:

ـ أنَّ بعضهم أخرج من الإيمان ما في القلب من الحبِّ والخَشية ونحوهما.

ـ أنَّهم جعلوا إبليس وفرعون وأبا طالب وأمثالهم، جعلوهم كفَّارًا؛ لأنَّهم لم يصدِّقوا في الباطن، وهذا مكابرة للحسِّ والعقل؛ لأن هؤلاء كلَّهم كانوا مصدِّقين بقلوبهم.

ـ أنَّ الكراميَّة جعلوا المنافقين مؤمنين كاملي الإيمان؛ لأنَّهم نطقوا بالشَّهادتين.

ـ أنَّ أكثر المرجئة جعلوا من تكلَّم بالكفر مؤمنًا عند الله حقيقةً، وأنَّ من لم يتكلَّم بالإيمان مع القدرة ولا أطاع الله طاعةً ظاهرة مؤمنًا تامَّ الإيمان.

ـ جعلوا من سجد للصَّليب طَوْعًا أو قتل النَّفس بغير الحقِّ أو ألقى المصحف في الحشِّ إيمانه كإيمان النَّبيِّين والصِّدِّيقين[10].

وأمَّا المعتزلة والخوارج؛ فإنَّهم وافقوا أهل السُّنَّة في تعريف الإيمان في الظَّاهر؛ لكنَّهم يقولون: إنَّه لا يتجزَّأ ولا يتبعَّض ولا يجتمع في الشَّخص إيمانٌ وكفرٌ.

وهذه هي نفس شبهة المرجئة، وسيأتي الرَّدُّ عليهم في مبحث: زيادة الإيمان ونقصانه.

---

(8) انظر: «الإيمان الكبير» (ص99 وما بعدها)، و«الإيمان الأوسط» (ص375 وما بعدها)، و«القاضي أبو يعلى وكتابه مسائل الإيمان»، و«التبيان لعلاقة العمل بمسمى الإيمان» (31 ـ 41)، و«زيادة الإيمان ونقصانه» (ص26).

(9) المرجئة طوائف عديدة مختلفة في تعريف الإيمان ولكن يجمعهم وصف الإرجاء ـ «مقالات الإسلاميين» (1/ 212).

(10) «الإيمان الأوسط» (ص493 ـ 495).

الفصل الثاني:
في دخول الأعمال في مسمَّى الإيمان.

المبحث الأوَّل: مذهب أهل السُّنَّة وأدلَّتهم.

تقدَّم في تعريف الإيمان عند أهل السُّنَّة أنَّه: قول واعتقاد وعمل، فهم يدخلون الأعمال في مسمَّى الإيمان، وهو الَّذي يدلُّ عليه الكتاب والسُّنَّة:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ...﴾ [الأنفال: 2 ـ 4].

وقال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤﴾ [البقرة: 1 ـ 4].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝١٥﴾ [الحجرات: 15].

وقال ﷺ: «**الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً؛ فَأَفْضَلُهَا: قَوْلُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ**»[11].

وقال ﷺ: «**أَكْمَلُ المُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا**»[12]، وقال ﷺ: «**البَذَاذَةُ مِنَ الإِيمَانِ**»[13] يعني التَّقشُّف؛ والأدلَّة في هذا المعنى كثيرة.

المبحث الثاني: مذهب الخوارج والمعتزلة.

سبق في تعريف الإيمان أنَّ الخوارج والمعتزلة يوافقون أهلَ السُّنَّة في أنَّ الإيمان قولٌ واعتقاد وعمل، ويخالفونهم في أنَّه لا يتبعَّض، وسيأتي الرَّدُّ عليهم في ذلك.

المبحث الثالث: مذهب المرجئة.

والمراد بالمرجئة هنا: من أَرْجَأَ الأعمال عن الإيمان فلم يُدْخِلْهَا فيه، فهو يشمل الجهميَّة والكراميَّة وجمهور الأشاعرة والكلابيَّة ومرجئة الفقهاء.

والمرجئة لم يُدْخِلوا الأعمال في الإيمان بناءً على تعريفهم للإيمان بأنَّه التَّصديق (على التَّسيل السَّابق)، وقد تقدَّمت الأدلَّة من الكتاب والسُّنَّة على دخول الأعمال في مسمَّى الإيمان بما يكفي في الرَّدِّ عليهم.

الفصل الرَّئيس: شرح الحديث ودلالاته.

المبحث الأوَّل: معنى الحديث.

قوله: «كالظُّلَّة» هي أوَّل سحابة تظلُّ[14].

(11) البخاري (9)، ومسلم (35).
(12) أخرجه أبو داود (4682)، والترمذي (1162).
(13) أبو داود (4161)، وابن ماجه (4118).
(14) «لسان العرب» (416/11).

ومعنى الحديث أنَّ الإيمان الواجب تحقيقه وكماله يُسلَب من العبد حال تلبُّسه بالزِّنا، فإذا فارق المعصية عاد إليه الإيمان.

وقد جاء عن عكرمة أنَّه سأل ابن عبَّاس: كيف يُنزع منه الإيمان؟

قال: هكذا وشبَّك بين أصابعه ثمَّ أخرجها، فإن تاب عاد إليه هكذا، وشبَّك بين أصابعه[15].

وجاء عن عبد الله بن رواحة وأبي الدَّرداء: أنَّ الإيمان يُنزع منه كما ينزع القميص، ويعود إليه كما يلبس القميص[16].

وجاء هذا المعنى كذلك عن أبي هريرة[17].

قال ابن رجب: «والمعنى أنَّه إذا أكمل خصال الإيمان لبسه، فإذا نقص منها شيء نزعه، وكلُّ هذا إشارة إلى الإيمان الكامل التَّامِّ الَّذي لا ينقص من واجباته شيء»[18].

قال شيخ الإسلام: «وفعله هذا - أي الزِّنا - إمَّا لذهوله عن التَّحريم وعظمة الرَّبِّ وشدَّة بأسه، وإمَّا لفرط الشَّهوة بحيث قهرت مقتضى الإيمان ومنعت موجبه بحيث يصير الاعتقاد مغموراً متهوراً كالعقل في النَّائم والسَّكران وكالرُّوح في النَّائم.

ومعلوم أنَّ الإيمان الَّذي هو الإيمان ليس باقيًا كما كان إذ ليس مستقرًا في القلب، واسم المؤمن عند الإطلاق إنَّما ينصرف إلى من يكون إيمانه باقيًا على حاله عاملاً عمله، وهو يشبه من بعض الوجوه روح النَّائم، فالنَّائم حيٌّ من وجه، ميِّت من وجه، وكذلك السَّكران والمغمى عليه عاقلٌ من وجه وليس بعاقل من وجه.

فإذا قال قائل: السَّكران ليس بعاقل، فإذا صَحَا عاد إليه عقله كان صادقًا، مع العلم أنَّه ليس بمنزلة البهيمة، إذ عقله مستور وعقل البهيمة معدوم، فالعقل الَّذي به يكون التَّكليف لم يسلب، وإنَّما سلب العقل الَّذي به يكون صلاح الأمور في الدُّنيا والآخرة، كذلك الزَّاني والسَّارق والشَّارب والمنتهب لم يعدم الإيمان الَّذي به يستحقُّ أن لا يخلد في النَّار، وبه تُرجى الشَّفاعة والمغفرة، وبه يستحقُّ المناكحة والموارثة، لكن عدم الإيمان الَّذي به يستحقُّ النَّجاة من العذاب ويستحقُّ به تكفير السَّيِّئات وقبول الطَّاعات وكرامة الله ومثوبته وبه يستحقُّ أن يكون محمودًا مرضيًّا»[19].

المبحث الثاني: دلالة الحديث على زيادة الإيمان ونقصانه.

المطلب الأوَّل: مذهب أهل السُّنَّة وأدلَّتهم.

قد دلَّ هذا الحديث على مذهب أهل السُّنَّة

(15) أخرجه البخاري (6424).
(16) «جامع العلوم والحكم» (ص120).
(17) «فتح الباري» (61/12).
(18) «جامع العلوم والحكم» (ص120).

(19) «مجموع الفتاوى» (7/675 - 676) بتصرف.

والجماعة في أنَّ الإيمان يزيد وينقص.

أمَّا دلالته على النُّقصان، فإنَّ الزَّاني إذا تلبَّس بالمعصية خرج منه الإيمان ونزع منه نوره، وضعف عنده الحياء من الله، فتجرَّأ على المعصية؛ لأنَّ «هذا التَّصديق لو بقي على حاله لكان صاحبه مصدِّقًا بأنَّ الله حرَّم هذه الكبيرة وأنَّه توعَّد عليها بالعقوبة العظيمة وأنَّه يرى الفاعل ويشاهده، وهو سبحانه وتعالى مع عظمته وجلاله وعلوِّه وكبريائه يمقت هذا الفاعل، فلو تصوَّر هذا حقَّ التَّصوُّر لامتنع صدور الفعل منه»[20]، «ومعلوم أنَّ الإيمان الَّذي هو الإيمان ليس باقيًا كما كان إذ ليس مستقرًّا ظاهرًا في القلب، واسم الإيمان عند الإطلاق إنَّما ينصرف إلى من يكون إيمانه على حاله عاملاً عمله»[21].

وأمَّا دلالته على الزِّيادة، فإنَّه إذا أقلع عن الذَّنب وتاب؛ رجع إليه الإيمان، وزاد في قلبه بالنِّسبة إلى الحال الَّتي كان عليها من النُّقصان.

والأدلَّة على هذه المسألة من الكتاب والسُّنَّة متظافرة:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [التوبة: 124].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ﴾ [الفتح: 4].

وقال النَّبيُّ ﷺ: «**مَنْ أَحَبَّ للهِ وَأَبْغَضَ للهِ وَأَعْطَى للهِ وَمَنَعَ للهِ فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الإِيمَانَ**»[22].

وقال ﷺ: «**مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ**»[23].

فهذه النُّصوص، منها ما فيه التَّصريح بزيادة الإيمان، وفي بعضها الإشارة إلى نقصانه، كهذا الحديث الأخير، وكلُّ نصٍّ دلَّ على الزِّيادة فهو دالٌّ على النُّقصان؛ لأنَّ كلَّ ما يقبل الزِّيادة يقبل النُّقصان ضرورة[24].

قال شيخ الإسلام: «وأجمع السَّلف أنَّ الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص»[25].

المطلب الثاني: مذاهب المخالفين.

أوَّلاً ـ من قال يزيد ولا ينقص:

وهو قول طائفة من الأشاعرة[26]، وقول

(20) «مجموع الفتاوى» (7/675).
(21) المصدر نفسه (7/676).

(22) أخرجه أبو داود (4681).
(23) أخرجه مسلم (49).
(24) انظر: «فتح الباري» (1/47) و«شعب الإيمان» (1/160).
(25) «مجموع الفتاوى» (7/672).
(26) انظر: «عمدة القاري» (1/107).

الغسانيَّة[27]، والنّجاريَّة[28]، وحكي عن أبي حنيفة ولم يثبت[29].

وهذا القول مبنيٌّ على أنَّ الإيمان هو التَّصديق، فإذا نقص التَّصديق صار شكًّا، وأمَّا الزِّيادة، فلزيادة المؤمَن به جملةً وتفصيلاً، واستدلُّوا على هذا المذهب بحديث: «الإسلام يزيد ولا ينقص»[30]، وبأنَّ المعاصي فروعُ الكفر، كما أنَّ الطَّاعات فروع الإيمان، وكما أنَّ طاعة الكافر ليست فرعًا عن إيمانه، فإنَّ معصية المؤمن ليست فرعًا عن كفره لعدم جواز اجتماع الإيمان والكفر، ولذلك فإنَّ المعاصي لا تنقص الإيمان؛ لأنَّها من الكفر، فلو نقصت منه أي من فرعه لأحبطت أصله، فإذا لم يجز وجود أصل الكفر مع الإيمان فلا يجوز وجود فروعه مع الإيمان[31].

والجواب عن هذه الشُّبهات من وجوه:

ـ أنَّ الإيمان ليس هو التَّصديق فقط، بل هو التَّصديق والإقرار بالقول والعمل.

ـ أنَّه لو كان هو التَّصديق، فإنَّ التَّصديق يتفاوت بين النَّاس ولا يلزم من نقص تصديقه أن يكون شاكًّا؛ لأنَّ من النَّاس من يقوى تصديقه ويقينه بما يرى ويتلو من آيات الله، فلا تؤثِّر فيه الشُّبهات ولا الشَّهوات، ومنهم من يضعف يقينه وتصديقه لإعراضه عن الآيات المرئيَّة والمتلوة، فينساق وراء الشَّهوات والشُّبهات فتتجارى به كما يتجارى الكلب بصاحبه وهذا مشاهد محسوس.

ـ وأمَّا الحديث فإنَّه ضعيفٌ لا تقوم به حجَّة، وعلى فرض صحَّته فهو محمول على أنَّ الإسلام يفضل غيره من الأديان[32] أو أنَّه يزيد بالدَّاخلين فيه أو بما يفتح من البلاد، ولا ينقص بالمرتدِّين أو بغلبة الكفَّار على ديار المسلمين[33].

ـ وأمَّا قولهم بأنَّ المعاصي لا تنقص فروع الإيمان، أي لا تحبطها فليس على إطلاقه، فإنَّ من المعاصي الشِّرك الأكبر وهو يحبط جميع الأعمال، ومن المعاصي الرِّياء وهو يحبط العمل الَّذي يخالطه، ومن المعاصي المنُّ والأذى وهو يحبط الصَّدقة.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: 264].

ـ وأما قولهم: إنّه لا يجوز وجود فروع الكفر مع الإيمان فغير صحيح؛ لأنّ الرّجل قد يجتمع فيه إيمان ونفاق أو إيمان وبعض شعب الكفر

(27) انظر: «مقالات الإسلاميين» (ص129).

(28) المصدر السابق (136).

(29) انظر: «زيادة الإيمان ونقصانه» (ص295 ـ 296).

(30) أخرجه أبو داود (2912)، والحاكم في «المستدرك» (383/4) وصححه، وضعفه الألباني، انظر: «السلسلة الضعيفة» رقم (1123).

(31) «المنهاج في شعب الإيمان» للحليمي (69/1).

(32) «فتح الباري» (50/12).

(33) «عون المعبود» (88/8).

وإن لم يكن كافرا أو منافقا.

قال ﷺ: «**أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا...**» الحديث[34]، كما يجتمع في الشّخص الواحد أو الأمر الواحد حبّ وبغض، قال الشّاعر:

الشّيب كـــره وكـره أن أفـارقـه

فاعجب لشيء على البغضاء محبوب

وأمّا نقصان الإيمان فهو ثابت بالكتاب والسّنّة وإجماع السّلف، كما تقدّم بيانه.

ثانيا ـ من قال: يزيد وتوقّف في النّقصان:

وهي رواية عن الإمام مالك[35].

وقيل: إنّه توقّف في ذلك؛ لأنّ التّصديق إذا نقص صار شكًّا وخرج عن الإيمان[36].

وقيل: خشية أن يُتأوّل عليه موافقة الخوارج في تكفير مرتكب الكبيرة[37].

وقيل: لأنّه لم يجد ذكر النّقص منصوصا عليه في القرآن[38].

أمّا التّأويل الأوّل فباطل لما تقدّم.

(34) أخرجه البخاري (34).

(35) انظر: «التمهيد» (252/9) و«مجموع الفتاوى» (331/7).

(36) «شرح النووي على صحيح مسلم» (146/1).

(37) «شرح النووي على صحيح مسلم» (146/1).

(38) «مجموع الفتاوى» (506/7).

وأمّا الثّاني، فإنّه لا يليق بالإمام مالك وهو من هو أن يترك اتّباع الدّليل خشية أن يفهم كلامه على غير مراده، ولو تُصوّر هذا في حقّه وفي حقّ غيره لاندرس كثير من الحقّ ولأميتت السّنن وأهملت النّصوص مخافة أن يقال إنّ القائل وافق أهل البدع، ثمّ إنّ الإمام مالكًا قد صرّح باستواء اللّه عزّ وجلّ على عرشه ولم يمتنع من ذلك مخافة أن يقال إنّه مشبّه أو مجسم.

والتّأويل الثّالث هو اللاّئق به رحمه الله بل هو الذي نص عليه؛ فإنه قال: «ذكر اللّه زيادته في غير موضع فدع الكلام في نقصانه وكف عنه»[39].

ثم إنه قد ثبت عنه القول بالزيادة والنقصان كما سيأتي.

ثالثا ـ من قال لا يزيد ولا ينقص:

وهو قول الجهمية[40]، وقول الخوارج والمعتزلة[41]، وقول الأشاعرة[42] والماتردية[43]، وهو قول أبي حنيفة وأصحابه[44] وأكثر فرق المرجئة[45].

(39) «السير» (102/8).

(40) «مقالات الإسلاميين» (ص132).

(41) «الإيمان الأوسط» (ص383).

(42) «شرح النووي على مسلم» (148/1).

(43) «إتحاف السادة المتقين» (256/2).

(44) «مقالات الإسلاميين» (ص139).

(45) المصدر نفسه (385).

وأصل نزاع هذه الفرق في الإيمان من الخوارج والمرجئة والمعتزلة والجهمية وغيرهم أنهم جعلوا الإيمان شيئا واحدا، إذا زال بعضه زال جميعه وإذا ثبت بعضه ثبت جميعا، فلم يقولوا بذهاب بعضه وبقاء بعضه[46].

وجماع شبهتهم في ذلك أن الحقيقة المركبة تزول بزوال بعض أجزائها، كالعشرة فإنه إذا زال بعضها لم تبق عشرة وكذلك الأجسام المركبة كالسكنجبين إذا زال أحد جزءيه خرج عن كونه سكنجبينا[47].

واستدلوا كذلك بحديث: «الإيمان لا يزيد ولا ينقص».

والجواب عن شبهتهم أن يقال:

إن الأمور المركبة لا يلزم من زوال بعض أجزائها زوال سائرها، فإن الواحد من العشرة إذا زال لم يلزم زوال التسعة، وكذا السكنجبين إذا زال أحد جزءيه ـ الخل أو العسل ـ لم يلزم زوال الآخر.

أما كونه لم يبق على تركيبه فهذا حق، فإن الصلاة أو الحج أو سائر العبادات إذا زال بعض أجزائها لم يلزم زوالها بالكلية، وكذلك الإيمان إذا زال بعض شعبه لم يلزم زوال الشعب الأخرى[48].

وأما حديث: «الإيمان لا يزيد ولا ينقص» فهو وما في معناه موضوع[49].

قال ابن القيم: وكل حديث فيه أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص فكذب مختلق»[50].

المبحث الثالث: في مسمى مرتكب الكبيرة وحكمه:

المطلب الأول: مذهب أهل السنة في نصوص الوعيد:

ورد في السنة عدة أحاديث تصف مرتكب الكبيرة بالكفر أو تنفي عنه الإيمان أو أنه «ليس منا».

قال ﷺ: «**لاَ إِيمَانَ لِمَنْ لاَ أَمَانَةَ لَهُ**»[51]، وقال: «**سِبَابُ المُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ**»[52]، وقال: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَطَمَ الخُدُودَ وَشَقَّ الجُيُوبَ وَدَعَا بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ**»[53].

(46) «الإيمان الأوسط» (ص383).

(47) المصدر نفسه (385)، والسكنجين: هو شراب مركّب من حامض وحلو.

(48) المصدر نفسه ص (391 ـ 392).

(49) «الأباطيل والمناكير» (1/17) وما بعدها، و«الموضوعات» (1/131) وما بعدها.

(50) «المنار المنيف» (ص119).

(51) أخرجه أحمد (3/135)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (7179).

(52) أخرجه البخاري (48).

(53) البخاري (1232).

وللسلف في هذه النصوص أقوال متقاربة.

أما نفي الإيمان فالمراد به نفي كمال الإيمان الواجب[54]، أو أن المتلبس بالمعصية نزع منه نور الإيمان أو قل حياؤه من الله[55]، أو أنه يخرج من مرتبة الإيمان إلى مرتبة الإسلام.

وأما إطلاق الكفر، فقيل: لأن المعاصي قد تؤدي به إلى الكفر فهي بريد الكفر، وقيل: يحمل على المستحل، وقيل: كفر دون كفر[56].

وأما قوله «ليس منا» فالمراد ليس على ديننا الكامل الواجب بحيث خرج من بعض فروعه، أو أن النبي ﷺ بريء منه بحيث لا تحل له الشفاعة كما برئ من الصالقة والحالقة والشاقة أو أنه ليس من أهل الإيمان المستحقين للثواب بلا عقاب والذين لهم الموالاة المطلقة[57]، وأما تفسيره بـ «ليس مثلنا» فهو قول المرجئة[58].

وقد نقل عن بعض السلف أن أحاديث الوعيد تُمَرُّ كما جاءت ولا يُتَعَرَّض لتأويلها حتى تكون أبلغ في الزجر، وليس المراد من ذلك أن هذه الأحاديث لا حقيقة لها إلا مجرد الوعيد

(54) «مجموع الفتاوى» (7/524).

(55) تقدم هذان التفسيران في الكلام على حديث أبي هريرة في المبحث الأول من هذا الفصل.

(56) «سنن الترمذي» (5/15)، و«شرح النووي» (2/54).

(57) «فتح الباري» (3/164)، و«مجموع الفتاوى» (19/294).

(58) «مجموع الفتاوى» (7/524).

والتهديد فإن هذا تعطيل للنصوص وتأويل لها على غير التأويل الصحيح[59].

قال أبو عبيد القاسم بن سلام: «وأفظع ما تؤول على رسول الله ﷺ وأصحابه أن جعلوا الخبر عن الله وعن دينه وعيدا لا حقيقة له، وهذا يؤول إلى إبطال العقاب...»[60].

المطلب الثاني: إطلاق الإيمان على مرتكب الكبيرة:

أولا ـ عند أهل السنة:

تقدم أن أهل السنة لا ينفون الإيمان مطلقا عمن وقع في الذنوب والمعاسي، ولا يثبتون له الإيمان الكامل.

قال شيخ الإسلام: «فالقول الوسط الذي هو قول أهل السنة والجماعة أنهم لا يسلبون الاسم على الإطلاق ولا يعطونه على الإطلاق، فنقول هو مؤمن ناقص الإيمان أو مؤمن عاص أو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، ويقال ليس بمؤمن حقا وليس بصادق الإيمان»[61].

وهذا الحديث ـ حديث الباب ـ قد دل على ذلك، فالإيمان ارتفع عنه ولم يفارقه بل بقي فوقه كالظلة تظل صاحبها.

(59) انظر: «مجموع الفتاوى» (7/674).

(60) «الإيمان» لأبي عبيد (ص88).

(61) «مجموع الفتاوى» (7/673).

قال شيخ الإسلام: «لأن قوله: «**خَرَجَ مِنهُ الإيمَانُ فكانَ فَوْقَ رَأْسِهِ كالظُلَّة**» دليل على أن الإيمان لا يفارقه بالكلية، فإن الظلة تظل صاحبها وهي متعلقة به ومرتبطة به نوع ارتباط»[62].

ففي هذا الحديث إشارة إلى أنه وإن خالف حكم الإيمان فإنه تحت ظله لا يزول عنه حكم الإيمان ولا يرتفع عنه اسمه، بل هو في ظل رعايته وبركته وكنفه[63].

ثانيا: عند الخوارج والمعتزلة:

ومرتكب الكبيرة عندهم ليس بمؤمن بوجه من الوجوه ولا يدخل في عموم الأحكام المتعلقة باسم الإيمان، ثم من هؤلاء من يقول هو كافر كاليهودي والنصراني، وهو قول الخوارج، ومنهم من يقول ننزله منزلة بين المنزلتين وهي منزلة الفاسق وليس هو بمؤمن ولا كافر وهم المعتزلة[64].

ثالثا: قول غلاة المرجئة:

وهؤلاء يقولون: إيمانهم باق كما كان لم ينقص، وهو مؤمن عند الله حقيقة، مؤمن تام الإيمان، إيمانه كإيمان الأنبياء والصديقين ولو لم يعمل خيرا، ولم يدع كبيرة إلا ركبها[65].

(62) المصدر نفسه.

(63) «تحفة الأحوذي» (7/315).

(64) «مجموع الفتاوى» (7/670).

(65) «الإيمان الأوسط» (ص494).

وفيما تقدم من المباحث ما يكفي في الرَّدِّ على هؤلاء الطوائف.

المطلب الثالث: حكم مرتكب الكبيرة:

والخلاف في هذه المسألة كالخلاف في سابقتها، والحق الذي دلت عليه الأدلة وسط بين الفريقين:

أوَّلاً ـ عند أهل السنة:

ومرتكب الكبيرة عندهم تحت المشيئة يوم القيامة، إن شاء الله عذبه وإن شاء غفر له، بشفاعة الشافعين أو برحمة رب العالمين وأنه لا يخلد في النار أحد من المؤمنين وإن دخلها.

لقوله تعالى: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ**﴾ [النساء: 48].

وفي حديث الشفاعة الطويل قوله ﷺ: «**يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيُقَالُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ شَعِيرَةٍ مِنْ إِيمَانٍ... فَأَقُولُ: يَا رَب ائْذَنْ لِي فِيمَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، فَيَقُولُ: وَعِزَّتِي وَجَلاَلِي وَكِبْرِيَائِي وَعَظَمَتِي لأُخْرِجَنَّ مِنْهَا مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ**»[66]، وقال ﷺ: «**شَفَاعَتِي لأَهْلِ الكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي**»[67].

(66) أخرجه البخاري (7072).

(67) أخرجه أبو داود (4739)، والترمذي (2435)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (3714).

ثانيا: عند الخوارج والمعتزلة:

وأما الخوارج والمعتزلة فإنهم ينكرون الشفاعة[68]، ويقولون: إنه لا يخرج من النار من دخلها من أهل التوحيد، ويكفّرون أصحاب الكبائر - على خلاف بينهم في التسمية - ولكنهم يجتمعون في القول بتخليدهم في النار يوم القيامة[69].

ثالثا: عند المرجئة:

وهم قسمان: واقفة، يقولون: لا ندري هل يدخل من أهل التوحيد النار أحد أم لا؟ وغلاة يقولون: لا يدخل من أهل التوحيد النار أحد، بل من تكلم بالكفر مع تصديقه بالله ورسوله ومن لم يتكلم بالإيمان مع القدرة عليه ولا أطاع الله طاعة ظاهرة قد يكون مؤمنا تام الإيمان سعيدا في الدار الآخرة.

وهذا المذهب ظاهر البطلان.

◆ **الخاتمة:**

مما سبق بحثه يتبين ما يلي:

- أن الإيمان قول وعمل واعتقاد.
- أنه يزيد وينقص، وأهله يتفاضلون فيه.
- أن المؤمن لا يخرج من الإيمان بارتكابه للذنوب ولا يخلد في النار.
- أن أهل السنة وسط بين طرفي الإفراط والتفريط؛ لأنهم أعملوا جميع النصوص، بخلاف الوعيدية الذين تمسكوا بنصوص الوعيد، والمرجئة الذين تمسكوا بنصوص الوعد.
- أن هذا الحديث وأمثاله من نصوص الوعيد تفسر وفق فهم السلف ولا حجة فيها على مذهب الخوارج الذين يكفرون عامة المسلمين.

قال ابن حجر: «...اجتمع لنا من الأقوال في معنى هذا الحديث ثلاثة عشر قولا خارجا عن قول الخوارج وعن قول المعتزلة... قال المازري: هذه التأويلات تدفع قول الخوارج ومن وافقهم من الرافضة... وكذا قول المعتزلة... فإن الطوائف المذكورين تعلقوا بهذا الحديث وشبهه، وإذا احتمل ما قلناه اندفعت حججهم»[70].

والحمد لله رب العالمين.

(68) «شرح الطحاوية» (1/294).

(69) «الإيمان الأوسط» (ص332)، وانظر: ص(327 - 328).

(70) «فتح الباري» (12/62).

المزاح في السنة

«ضوابط وأهداف»

عبد المجيد تالي
ليسانس في الشريعة الإسلامية

الحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله على نبيِّه الكريم وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدِّين، أمَّا بعد: فالمزاح سلوك اجتماعي يرتبط بالإنسان دون غيره من المخلوقات فهو أحد وسائل المعاشرة بين بني الإنسان، وهو أحد الأسباب لطرد السّأم والملل وتطييب الخواطر والمجالس، بل هو منهج تربوي هادف.

ولما كان بهذه المثابة أحببنا أن نفيد قرَّاء مجلَّتنا الغرَّاء ببعض ما يتعلَّق بهذا السُّلوك في شرعنا المطهَّر، علّنا أن نصحح بعض المفاهيم أو نسوِّب بعض الأخطاء الّتي قد تحوم حول هذا المقصد الاجتماعي النَّبيل، فإلى ذلك في النِّقاط التَّالية.

أوَّلاً. تعريف المزاح:

المزاح في اللُّغة: الدّعابة ، وقال في «المحكم»: «المزاح نقيض الجدّ».

وضبط لفظ المزاح بكسر الميم على أنَّه مصدر للفعل الرُّباعي مازحه للمشاركة بين اثنين، كما ضبط بضمِّ الميم على أنَّه مصدر للفعل الثُّلاثي مزح من طرف واحد.

يقال في الفعل الأوَّل: مازحه مزاحًا وممازحة، وكلاهما مصدر لهذا الفعل مازحه.

ويقال في الفعل الثاني: مزح مزاحًا ومزاحة بضمِّ الميم فيهما، وكلاهما اسم مصدر لهذا الفعل مزح، أما المصدر فالمزح[1].

أمَّا اصطلاحًا: فعرَّفه بعض أهل العلم بأنَّه: المباسطة إلى الغير على جهة التَّلطُّف

(1) انظر: «لسان العرب»، و«تاج العروس»، و«الصِّحاح»، و«المعجم الوسيط»: (مادة: مزح).

والاستعطاف دون أذيَّة[2].

ثانيا ـ حكمه:

المزاح في الأصل مباح، إن سلم من محرَّم، لفعل النَّبيِّ ﷺ له.

قال العزُّ بنُ عبد السَّلام رحمه الله: «فإنْ قيل: فما تقولون في المزاح؟ قلنا : إنَّما يجوز المزاح لما فيه من الاسترواح، إمَّا للمازح أو للممزوح معه، وإمَّا لهما» اهـ[3].

وبمثل ذلك قال النووي رحمه الله في «أذكاره» (ص581) حيث قرَّر أنَّ ما كان منه لمصلحة وتطييب نفسِ المخاطب ومؤانسته فهذا لا مانع منه قطعًا، بل هو سنَّة مستحبَّة إذا كان بهذه الصِّفة.

والأصل في ذلك:

1 ـ ما روى الترمذي في «سننه» (1913)، وفي «الشَّمائل» (238)، وقال: «حديث حسن صحيح»، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قالوا يا رسول الله ﷺ إنَّك تداعبنا، قال: «**نَعَمْ غَيْرَ أَنِّي لاَ أَقُولُ إِلاَّ حَقًّا**»[4].

2 ـ وما روى أحمد (13817)، وأبو داود (4998)، والتِّرمذي (1991) وقال: «حسن غريب» عن أنس رضي الله عنه أنَّ رجلاً استحمل رسول الله ﷺ فقال: «**إِنِّي حَامِلُكَ عَلَى وَلَدِ النَّاقَةِ**»، فقال: يا رسول الله ما أصنع بولد النَّاقة؟ فقال ﷺ: «**وَهَلْ تَلِدُ الإِبِلَ إِلاَّ النُّوقُ**» وإسناده صحيح على شرط الشَّيخين، انظر: «مختصر الشمائل» للألباني (203).

3 ـ وما روى الشيخان: البخاري (5774)، ومسلم (4003)، والتِّرمذي (305) عن أنس رضي الله عنه قال: إن كان رسول الله ليخالطنا حتَّى يقول لأخ لي صغير: «**يَا أَبَا عُمَيْرٍ مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ**».

النُّغير: بضمِّ النُّون تصغير النُّغَر، بضمِّ النُّون وفتح الغين المعجمة، وهو طائر صغير.

فهذه الأحاديث من قوله ﷺ وغيرها من فعله كثير تدلُّ على جواز المزاح كما نصَّ على ذلك أهل العلم، بل قد يرتقي الأمر إلى درجة النَّدب والاستحباب، إن كان ذلك لمصلحة من تطييب نفس أو إيناس مخاطَب، كما أشار إليه النَّووي رحمه الله في النَّقل عنه سابقًا في «أذكاره».

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «...والذي يسلم من ذلك هو المباح، فإن صادف مصلحة مثل تطييب نفس المخاطب ومؤانسته فهو مستحبٌّ» اهـ[5].

(2) انظر: «تاج العروس» (مادة: مزح)، و«الموسوعة الكويتية» (43/37).

(3) «قواعد الأحكام في مصالح الأنام» (2/391).

(4) حديث صحيح، انظر: «الصَّحيحة» (1726).

(5) «فتح الباري» (10/527).

وقال الغزي الشَّافعي رحمه الله: «سئلت قديمًا عن المزاح وما يكون منه وما يباح، فأجبت: بأنَّه مندوب إليه بين الإخوان والأصدقاء والخلاَّن، لما فيه من ترويح القلوب، والاستئناس المطلوب، بشرط أن لا يكون فيه قذف ولا غيبة، ولا انهماك يسقط الحشمة» اهـ[6].

وجاء في «الموسوعة الكويتية» (273/36):

أنَّ «المداعبة لا تنافي الكمال؛ بل هي من توابعه ومتمِّماته إذا كانت جارية على القانون الشَّرعي، بأن تكون على وفق الصدق، وبقصد تأليف قلوب الضُّعفاء وجبرهم، وإدخال السُّرور عليهم والرِّفق بهم...، ومزاحه ﷺ سالم من جميع هذه الأمور، يقع على جهة النُّدرة لمصلحة تامَّة، من مؤانسة بعض أصحابه، فهو بهذا القصد سنَّة، إذ الأصل من أفعاله ﷺ وجوب التَّأسِّي به فيها أو ندبه إلاَّ لدليل يمنع من ذلك، ولا دليل هنا يمنع منه، فتعيَّن النَّدب كما هو مقتضى كلام الفقهاء والأصوليِّين».

فتبيَّن من خلال هذا النَّقل عن أهل العلم أنَّ المزاح في الأصل مباح، وقد يندب إليه إن كان لمؤانسة أو ترويح قلب «لا سيما إن لاحظ المرء وحشة أو غمًّا أو همًّا، أو كآبة أو حزنًا في نفس المخاطَب»[7].

(6) «المزاح في المزاح» (ص8).

(7) «المزاح في الإسلام» ضمن مجلَّة الشَّريعة والدِّراسات الإسلامية - جامعة الكويت: العدد 21/ سنة 2005 (ص 215).

يشهد لذلك ما رواه البيهقي في «سننه» (248/10)، واللَّفظ له: (باب المزاح لا تردُّ به الشَّهادة)، وابن سعد في «الطَّبقات» (506/3) عن أنس قال: كان ابن لأم سليم يقال له أبو عمير كان النَّبيُّ ﷺ ربَّما يمازحه إذا جاء، فدخل يومًا يمازحه فوجده حزينًا، فقال: «**مَا لِي أَرَى أَبَا عُمَيْرٍ حَزِينًا؟**»، فقالوا: يا رسول الله مات نغيره الَّذي كان يلعب به، فجعل يناديه: «**يَا أَبَا عُمَيْرٍ مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ**».

فتصرُّف النَّبيِّ ﷺ هنا إنَّما كان من باب التَّخفيف من حزن الصَّبيِّ حيث إنَّه كان له طائر فمات، فأراد أن يمازحه فسأله: يا أبا عمير ما فعل النُّغير؟

ثالثًا ـ الحكمة من شرعيَّته:

ممَّا سبق يتجلَّى لنا بوضوح أنَّ الحكمة من شرعيَّة المزاح هي: مؤانسة الإخوان وتطييب النُّفوس؛ لأنَّ المزاح ما أبيح إلاَّ لما فيه من الاسترواح إمَّا للمازح أو الممزوح معه وإمَّا لهما، كما سبق من كلام العزِّ بن عبد السَّلام رحمه الله.

ولذا قيل: «العاقل يتوخَّى بمزاحه أحد حالين لا ثالث لهما: أحدهما: إيناس المصاحبين والتودُّد إلى المخالطين، وثانيهما: أن ينفي بالمزاح ما طرأ عليه وحدث به من الهمِّ»[8].

(8) «أدب الدُّنيا والدِّين» للماوردي (ص297 ـ 298).

لكن هذا الّذي سبق بيانه من الجواز أو النّدب حتّى يؤدّي مقصوده الشّرعي ينبغي أن يتقيّد بالضّوابط الشّرعية والأهداف السّامية للمزاح حتّى لا يخرج عن قيد الشّرعية إلى المزاح المذموم كما سيأتي بيانه.

فإليك ـ أخي القارئ ـ ضوابط وأهداف المزاح المحمود شرعا في النّقاط التّالية:

رابعًا: ضوابط المزاح المشروع:

1 ـ تحرّي الصّدق والبعد عن الكذب، والأصل في ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه قالوا: يا رسول الله إنّك تداعبنا، قال: «**نَعَمْ غَيْرَ أَنِّي لاَ أَقُولُ إِلاَّ حَقًّا**»[9].

وما روى المبارك بن فضالة عن الحسن ـ أي: البصري ـ قال: أَتَتْ عجوزٌ إلى النّبيّ ﷺ فقالت: يا رسول الله! ادع الله أن يدخلني الجنّة، فقال: «**يَا أُمَّ فُلاَنٍ إِنَّ الجنَّةَ لاَ تَدْخُلُهَا عَجُوزٌ**»، قال: فولّت تبكي، فقال: «**أَخْبِرُوهَا أَنَّهَا لاَ تَدْخُلُهَا وَهِيَ عَجُوزٌ**»، إنّ الله تعالى يقول: ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ﴿٣٥﴾ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتۡرَابٗا ﴿٣٧﴾﴾ [الواقعة: 35][10].

2 ـ أن يكون على الاقتصاد، فلا إفراط فيه ولا مداومة.

قال الرّاغب الأصفهاني رحمه الله: «المزاح إن كان على الاقتصاد فهو المحمود كما رُوي عنه عليه السلام: «إنّي لأمزح ولا أقول إلاّ حقًّا» اهـ[11].

فالإفراط فيه: يورث كثرة الضّحك والضّغينة في بعض الأحوال، ويستحل المهابة والوقار، ويشغل عن ذكر الله تعالى والفكر في مهمّات الدّين.

وأمّا المداومة عليه: فإنّها اشتغال باللّعب واللّهو[12].

قال المرتضى الزّبيدي رحمه الله: «وقد قال الأئمّة: الإكثار منه، والخروج عن الحدّ مخلٌّ بالمروءة والوقار؛ والتنزُّه عنه بالمرَّة والتَّقَبُّض مخلٌّ بالسُّنَّة والسِّيرة النَّبويَّة المأمور باتّباعها والاقتداء، وخير الأمور أوسطها» اهـ[13].

وهنا أمرٌ مهمٌّ يغلط فيه كثير من النَّاس حيث اتَّخذوا المزاح حرفة وصنعة لإضحاك النَّاس بالكذب والافتراء، من أمثال أصحاب التَّمثيليَّات ـ الكوميديا ـ والرُّسوم الكاريكاتورية الّتي ما فتئت تسخر حتَّى من بعض الشَّعائر الدِّينية، ناهيك عن الطّعن في بعض الجهات بالسَّبِّ والقذف والاتّهام، وما ذاك إلاَّ جهلاً

(9) تقدّم تخريجه.

(10) رواه التّرمذي في «الشّمائل» (238)، وحسّنه الألباني في «مختصره» (205).

(11) «الذّريعة إلى مكارم الشّريعة» (ص184 ـ 185).

(12) انظر: «موعظة المؤمنين» (ص289).

(13) «تاج العروس»: (مادة: مزح).

بالدِّين وقلَّة في الحياء وسَنَهًا في العقل ـ عياذًا بالله ـ، أو التَّنكيت بفئة من النَّاس أو جهة من الجهات ممَّا قد يكون سببًا لإثارة الضَّغائن والأحقاد، وقد توعَّد النَّبيُّ ﷺ من يفعل ذلك بالوعيد الشَّديد.

فعن بهز بن حكيم عن أبيه عن جدِّه قال: سمعت النَّبيَّ ﷺ يقول: «**وَيْلٌ لِلَّذِي يُحَدِّثُ بِالحَدِيثِ لِيُضْحِكَ بِهِ القَوْمَ فَيَكْذِب، وَيْلٌ لَهُ، وَيْلٌ لَهُ**»(14).

قال في «فيض القدير» (6/477): «كرَّره ـ أي الدُّعاء بالويل ـ إيذانًا بشدَّة الهلكة، وذلك لأنَّ الكذب وحده رأس كلِّ مذموم وجماعُ كلِّ فضيحة، فإذا انضمَّ إليه استجلاب الضَّحك الَّذي يميت القلب ويجلب النِّسيان ويورث الرُّعونة كان أقبح القبائح، ومن ثمَّ قال الحكماء: إيراد المضحكات على سبيل السّخف نهاية القباحة» اهـ.

ومن ثَمَّ قال أهل العلم: «ومن الغلط العظيم أن يتَّخذ المزاح حرفة يواظب عليه ويفرط فيه ثم يتمسَّك بفعل الرَّسول ﷺ وهو كمن يدور نهاره مع الزنوج ينظر إليهم وإلى رقصهم، ويتمسَّك بأنَّ رسول الله ﷺ أذن لعائشة رضي الله عنها في النَّظر إلى رقص الزُّنوج في يوم العيد، وهو خطأ، فإنَّ «أكثر هذه المطايبات منقولة مع النِّساء والصبيان، وكان ذلك منه ﷺ معالجة لضعف قلوبهم من غير ميل إلى هزل» اهـ(15).

3 ـ أن لا يكون مجلبة للأحقاد أو محرِّكًا للضغائن، فإن كان كذلك فإنَّه لا ينفكُّ عن تحريم أو كراهة عند أهل العلم(16).

قيل: «لكلِّ شيء بدء وبدء العداوة المزاح».

وقيل:

لا تمزح فإنَّ المزاح جهل

وبعض الشَّرِّ بدؤه المزاح

ولكن هذا ليس على إطلاقه وإن كان هو أحد أسبابه، لذا فمن الآداب المرعيَّة عدم المزح مع من لا يقبلونه، فإنَّه سبب للعداوة أو القطيعة، فبعض النَّاس يحمل كلَّ قولٍ أو فعل مَحْمَلَ الجدِّ، أو أنَّهم لا يحبُّون مزاح هذا الشَّخص بالذات، فيكون ذلك مؤدِّيًا إلى ما لا يُحمد عتباه فيجتنب، وعليه؛ فلا بدَّ من معرفة شخصيَّة المقابَل فلا يمازح السَّفيه ولا الأحمق ولا من لا يعرف.

4 ـ أن لا يكون مروِّعًا أو مخيفًا للغير، فإن كان كذلك فهو مذموم حرام.

والأصل في ذلك ما روى عبد الله ابن

(14) رواه التِّرمذي (2315)، وقال: «هذا حديث حسن»، وأبو داود (4990)، وحسَّنه الألباني في «صحيح الترمذي» (1885)، و«صحيح أبي داود» (4175).

(15) انظر: «موعظة المؤمنين» (ص527).

(16) انظر: «قواعد الأحكام» (2/391)، و«الأذكار النَّوويَّة» (ص581).

السَّائب بن يزيد عن أبيه عن جدِّه أنَّه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**لاَ يَأْخُذْ أَحَدُكُمْ مَتَاعَ أَخِيهِ لاَعِبًا وَلاَ جَادًّا**»(17).

جعله «لاعبًا» من جهة أنَّه أخذه بنيَّة ردِّه، و«جادًّا» من جهة أنَّه روَّع أخاه المسلم بفقد متاعه، أفاده العزُّ بن عبد السَّلام رحمه الله في «قواعد الأحكام» (392/2).

وما روى عبد الرَّحمن بن أبي ليلى قال: حدَّثنا أصحاب رسول الله ﷺ أنَّهم كانوا يسيرون مع رسول الله ﷺ في مسيرٍ فنام رجلٌ منهم، فانطلق بعضهم إلى نبلٍ معه فأخذها، فلمَّا استيقظ الرَّجل فزع، فضحك القوم، فقال: «**مَا يُضْحِكُكُمْ؟**»، فقالوا: لا، إلاَّ أنَّا أخذنا نبل هذا ففزع، فقال رسول الله ﷺ: «**لاَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يُرَوِّعَ مُسْلِمًا**»(18).

5 ـ أن يكون بجميلِ القول ومستحسن الفعل، فيجتنب المازح في مزاحه القول القبيح الفاحش، والفعل السَّيِّء المخلّ بالأدب مع الأصدقاء والخلاَّن، فإنَّ ذلك مجلبة للنُّفور محرِّك للضَّغائن.

6 ـ أن يكون أكثره مع من يحتاجون إليه: كالنِّساء والأطفال، وكذلك كان حال النَّبيِّ ﷺ، فإنَّ أكثر مطايباته ﷺ كانت مع النِّساء والصِّبيان، وكان ذلك منه ﷺ معالجة لضعفهم من غير ميل إلى هزل، كما سبقت الإشارة إليه في الضَّابط الثاني.

خامسًا ـ أهداف المزاح المشروع:

المزاح من صور المجاملة الاجتماعية الحقَّة، والمفاكهة الإنسانية المتوارثة، وقد شرع في الإسلام لأهداف وغايات سامية منها:

1 ـ الإسهام في زيادة الرَّوابط الاجتماعية؛ لأنَّ من غايات المزاح المشروع إيناس المصاحبين والتودُّد إلى المخالطين، كما سبق من كلام الماوردي رحمه الله.

2 ـ استجماع النَّشاط وزيادة الاقتدار على متابعة مسؤوليَّات الحياة؛ لأنَّ الإنسان قد تمرُّ به لحظات فتور عن العبادة أو ملل من تكاليف الحياة ومشاغلها، ويشعر بحاجة إلى شيء من التَّرفيه واللَّهو المباح.

فمن غاياته نفي ما طرأ من سأم وما حدث من همٍّ، وقد قيل: «لابدَّ للمصدور أن ينفث»، فهو منهج تربويٌّ يهدف إلى تحقيق نشاطٍ نفسيٍّ يطرد رواسب التَّعب والسَّأم.

---

(17) رواه التِّرمذي (2160)، وقال: «حديث حسن غريب»، وأبو داود (5003) واللَّفظ له، وحسَّنه الألباني في «صحيح أبي داود» (4183).

(18) رواه أحمد في «مسنده» (23064)، وصحَّحه الألباني في «غاية المرام» (447).

مَزح الشعبي رحمه الله يومًا، فقيل له: أتمزح؟ قال: «إن لم يكن هذا مُتنا من الغمِّ».

وقال الخليل بن أحمد رحمه الله: «النَّاس في سجن ما لم يتمازحوا»[19].

3 ـ تيسير الوصول إلى الآخرين من خلال استلانة قلوبهم لتسهيل انقيادها، ومن ذلك ملاطفته ﷺ لأصحابه رجالاً ونساءً وصغارًا.

4 ـ معالجة ضعف القلوب وجبرها، ولذا كانت أكثر مطايباته ﷺ مع النِّساء والصِّبيان، معالجة لضعف قلوبهم.

5 ـ نشر البسمة على الشفاه وإشاعة الفرح والسُّرور، «وهذه مستلزمات إنسانيَّة لا يخلو منها أحد، وقد كان الرَّسول ﷺ يبتسم ويضحك، وكان تبسُّمه أكثر من ضحكه، وكان ينبسط إلى أهله وإلى النَّاس ويمازحهم ويدخل الفرح والسَّعادة والسُّرور على نفوسهم»[20].

6 ـ تهذيب الممازَح وغيره وتقويم سلوكهم، يشهد لذلك ما رواه عبد الله بن بسر المازني رضي الله عنه قال: بعثتني أمِّي إلى رسول الله ﷺ بقطف عنب، فأكلت منه قبل أن أبلغه إيَّاه، فلمَّا جئت به، أخذ بأذني وقال: «يَا غُدَرُ»[21].

و«الغَدْر»: ترك الوفاء، وغُدَر أكثر ما يستعمل في الشَّتم فيقال: يا غُدَر[22].

وظاهر هذا الحديث: أنَّ النَّبيَّ ﷺ إنَّما أراد ممازحة هذا الطِّفل ومداعبته وملاطفته.

هذه بعض ضوابط وأهداف المزاح المشروع فمن التزمها كان مزحه مشروعًا، ومن أخلَّ بها أو ببعضها فقد جانب الصَّواب ووقع في الخَطَلِ وهو مذموم المزاح، وضابطه: كل ما اشتمل على ما يخدش الحياء ويجرح الكرامة ويثير الحفيظة، ومنه:

1 ـ الاستهزاء بالدِّين أو بأحد شعائره: فإنَّ ذلك من نواقض الإسلام ـ عياذًا بالله ـ قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ۚ ﴾ [التوبة: 65 ـ 66]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «الاستهزاء بالله وآياته ورسوله كفر

(19) انظر: «الآداب الشَّرعية» (321/2).

(20) انظر: «المزاح في الإسلام» ضمن مجلَّة «الشَّريعة والدِّراسات الإسلامية» (ص221).

(21) رواه ابن السُّنِّي (401) والبخاري في «التَّاريخ» (2673) تعليقًا، وابن عديٍّ في «الكامل» (213/2) وابن حجر في «اللِّسان» (346/1)، وهو حسن بمجموع طرقه، انظر: «الأذكار النَّوويَّة» مع تعليق عامر بن علي ياسين.

(22) «اللِّسان» لابن منظور (مادة: غدر).

يكفر به صاحبه بعد إيمانه»[23]، وقال الشَّيخ عبد الرَّحمن بن سعدي رحمه الله عند تفسيره لهذه الآية الكريمة ما نصُّه: «...فإنَّ الاستهزاء بالله وآياته ورسوله كفرٌ مخرجٌ من الدِّين؛ لأنَّ أصل الدِّين مبنيٌّ على تعظيم الله، وتعظيم دينه ورسوله، والاستهزاء بشيء من ذلك مناف لهذا الأصل، ومناقض له أشدَّ المناقضة» اهـ، وفي حكمه الاستهزاء ببعض السُّنن الشَّرعية كالاستهزاء باللِّحية أو الحجاب أو بتقصير الثوب أو غيرها من السُّنن، فإنَّ ذلك كلَّه منكرٌ من القول أو الفعل وهو فعل من أفعال المنافقين، سلَّمنا الله.

فجانب الرُّبوبية والرِّسالة والوحي والدِّين، جانب محترم لا يجوز لأحد أن يعبث فيه لا باستهزاء، ولا بإضحاك، ولا بسخريَّة، فإنْ فعل فإنَّه كفرٌ؛ لأنَّه يدلُّ على استهانته بالله عزَّ وجلَّ ورسله وكتبه وشرعه، وعلى من فعل هذا أن يتوب إلى الله عزَّ وجل ممَّا صنع.

ومن الأخطاء الَّتي يقع فيها بعض المسلمين في هذا الباب التَّنكيت أو المزح بالغيبيَّات ـ من جنَّة، أو نار، أو قبر ـ الَّتي جعلها الرَّبُّ جلَّ وعلا عبرة وموعظة، وترغيبًا وترهيبًا لما أعدَّه لعباده يوم الدِّين، فالتَّنكيت بها تزهيد للخلق في المقصود الشَّرعي منها فليحذر ذلك.

(23) انظر: «مجموع فتاواه» (173/4). ط/العبيكان.

2 ـ الاستهزاء بالنَّاس مع الغَمْزِ واللَّمْزِ لهم، وقد نهى الله عزَّ وجل عن ذلك حيث قال في محكم كتابه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾ [الحجرات: 11]، قال ابن كثير رحمه الله: «ينهى تعالى عن السُّخريَّة بالنَّاس، وهو احتقارهم والاستهزاء بهم، كما ثبت في «الصَّحيح» عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «**الكِبْرُ بَطْرُ الحَقِّ وَغَمْصُ النَّاسِ**» ويروى «**وَغَمْطُ النَّاسِ**» والمراد من ذلك احتقارهم واستصغارهم، وهذا حرام، فإنَّه قد يكون المحتَقَر أعظم قدرًا عند الله وأحبَّ إليه من السَّاخر منه المحتقِر له» اهـ[24].

وبعض ضعاف النُّفوس من أهل الاستهزاء قد يجدون شخصًا يكون لهم سببًا للإضحاك والتَّندُّر ـ والعياذ بالله ـ وقد نهى الله عزَّ وجلَّ عن ذلك كما مرَّ، وليعلم أمثال هؤلاء أنَّ «**المسلمَ أخُو المسلِمِ لا يظلِمُه ولا يخذُلُه ولا يحقِرُه، وأنَّ كلَّ المسلِمَ على المسلِمَ حَرَامٌ دمُه، ومالُه، وعرضُه**» كما رواه مسلم (4650) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(24) «تفسير القرآن العظيم» (154/13). ـ طبعة قرطبة.

3 ـ المزاح الَّذي قد يؤدِّي إلى الإضرار بالمزوح معه، روى البخاري (7072)، واللَّفظ له، ومسلم (2617) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ: **«لاَ يُشِيرُ أَحَدُكُمْ إِلَى أَخِيهِ بِالسِّلاَحِ، فَإِنَّهُ لاَ يَدْرِي لَعَلَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِغُ فِي يَدِهِ، فَيَقَعَ فِي حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ»**، وفي رواية لمسلم (2616): **«مَنْ أَشَارَ إِلَى أَخِيهِ بِحَدِيدَةٍ فَإِنَّ المَلاَئِكَةَ تَلْعَنُهُ حَتَّى يَدَعَهُ، وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ لأَبِيهِ وَأُمِّهِ»**.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «فيه النَّهي عمَّا يفضي إلى المحذور، وإنْ لم يكن المحذور محقَّقًا سواء كان ذلك في جدٍّ أو هزل»[25].

وفي قوله: **«وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ لأَبِيهِ وَأُمِّهِ»**: «مبالغة في إيضاح عموم النَّهي في كلِّ أحد سواء من يتَّهم فيه ومن لا يتَّهم، وسواء كان هذا هزلاً ولعبًا أو لا؛ لأنَّ ترويع المسلم حرام بكلِّ حال، ولأنَّه قد يسبقه السِّلاح كما صرَّح به في الرِّواية الأخرى»، أفاده النَّووي في «شرحه على مسلم» (16/170).

وقد سبقت الإشارة إلى حرمة ترويع المسلم ولو عن طريق المزح كما في الضَّابط (4).

فاحذر أيُّها المسلم أن يصدر منك مثل هذا التَّصرُّف المشين فيلحقك ذاك الوعيد العظيم ـ ألا وهو الطَّرد من رحمة الله جلَّ وعلا ـ، سلَّمني الله وإيَّاك، وانظر كيف استحقَّ هذا اللَّعن بالإشارة؛ فما ظنُّك بالإصابة.

4 ـ ما اشتمل على كذب أو غيبَة:

أمَّا الأوَّل: فقد مضى التَّنبيه على ما ورد فيه من الوعيد في الضَّابط (1)، فليكن ذلك منك على ذُكر.

أمَّا الثاني: فمرض خبيث، وكبيرة من كبائر الذُّنوب، يكفي في قبحه أنَّه أكلٌ للحوم النَّاس بغير حقٍّ، روى أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لَمَّا عُرِجَ بِي مَرَرْتُ بِقَوْمٍ لَهُمْ أَظْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ يَخْمُشُونَ بِهَا وُجُوهَهُمْ وَصُدُورَهُمْ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلاَءِ يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَؤُلاَءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لُحُومَ النَّاسِ، وَيَقَعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ»**[26].

وقد زيِّن هذا الفعل القبيح لبعض النَّاس فصار يقترفه، ويقع فيه، كلُّ ذلك باسم المزاح ودفع السَّأم والملل، وما شعر مقترفه أنَّ ذاك من الغِيبَة المحرَّمة الَّتي قال فيها النَّبي ﷺ موضِّحًا ومبيِّنًا لحدِّها لما قال: **«أَتَدْرُونَ مَا الغِيبَةُ؟»**،

(25) «الفتح» (13/25).

(26) رواه أبو داود (4878) وهو صحيح، انظر: «الصَّحيحة» (533).

قَالُوا: اللّه ورسوله أعلم، قال: «**الغِيبَةُ ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ**»[27].

فالتَّنكيت وإدخال السُّرور على الغير، والانبساط إلى الإخوان لا يكون أبدًا بما حرَّم اللّه تعالى؛ فلْيُعْلَم ذلك.

وختامًا هذه ضوابطُ وأهدافٌ لهذا السُّلوك الاجتماعي النَّبيل، جمعتها ورتَّبتها قدر الجهدِ، علَّ قارئها ينتفع بها، رزقنا اللّه جلَّ وعلا كريم الأخلاق وجميل الفعال، آمين.

وصلِّ اللَّهمَّ ربِّ على مَنْ بعث متمِّمًا لمكارم الأخلاق، وعلى آله وصحبه وسلِّم تسليمًا.



(27) رواه مسلم (2589).

الهدى والرُّشد أساس صلاح العبد

حسن آيت علجت

ليسانس في الشريعة الإسلامية

لقَدْ خَلَقَ اللَّهُ تعالى الإنْسَانَ في أحْسَنِ تَقْوِيم، وحَبَاهُ بالتَّشْريفِ والتَّكْريم، كما قال سبحانه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ [التين: 4]، وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝٧٠﴾ [الإسراء: 70].

ومِنْ تَمامِ تَكْرِيمِ اللهِ ﷻ للنَّوْعِ الإنْسَانيِّ أنْ أرْسَلَ إلَيْهِمُ الرُّسُلَ مُبَشِّرِينَ ومُنْذِرِينَ، وأنْزَل مَعَهُم الكتابَ بالحقِّ المُبين، كما قالَ تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٢١٣﴾ [البقرة: 213]، وختَمَهُم بنَبيِّه المصطفى، ورسُولِه المُجْتَبَى: محمَّدِ بْنِ عبد الله الهاشمي القُرَشِيِّ المكِّيِّ ثمَّ المدَنيِّ ﷺ، الَّذي أرْسَلَه بالهُدَى وهو: العِلْمُ النَّافِعُ، ودِينِ الحَقِّ وهو: العمَلُ الصَّالح[1]؛ كما قال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ۝٢٨﴾ [الفتح: 28].

ثُمَّ إنَّ اللهَ تعالى أوْدَعَ في هذا الإنْسَانِ قُوَّتَيْنِ: قوَّةً عِلْمِيَّةً، وقُوَّةً عمَلِيَّةً[2]؛ فالقُوَّةُ العِلْمِيَّةُ: هي قوَّةُ العِلْمِ والإدْرَاكِ والتَّمْييز؛ والقُوَّةُ العَمَلِيَّة: هي قوَّةُ العَمَلِ والإرَادَةِ؛ وهاتان القُوَّتَانِ مِنَ

(1) كما قال الإمام ابن كثير في «تفسيره» (4/1748، ط: دار الفكر).

(2) انظر: «فتاوى ابن تيمية» (9/136)، «الفوائد» لابن قيم الجوزية (ص29، ط: دار النفائس).

الأمُورِ الّتي تُدْرَكُ بالحِسِّ، ويجدهُمَا كُلُّ أحَدٍ في نَفْسِهِ ضَرُورةً.

وكَمَالُ الإنْسَانِ، وصَلاَحُهُ، يَكونُ باستِعْمَالِ هاتَيْنِ القوّتَيْنِ فِيمَا يَنْفَعُهُ: فيستَعْمِلُ قوّةَ العِلْمِ والإدْرَاكِ في مَعْرِفَةِ الحَقِّ؛ وقوّةَ العَمَلِ والإرَادَةِ في اتِّباعِهِ، والعَمَلِ به، وإيثارِهِ على الباطل؛ فإذا فسَدَتْ إحْدَى القوّتَيْنِ أوْ كِلْتَاهمَا، كان فسادُه بحَسَبِ ذلك؛ فَفَسَادُ القُوَّةِ العِلْميَّة يَنْجُمُ عَنْهُ: عَدَمُ مَعْرِفَةِ الحقِّ وإدْرَاكِه، أوْ عَدَمُ التَّمْييزِ بيْنَه وبيْنَ الباطِلِ؛ وفسادُ القُوَّةِ العمليَّةِ ينْجُمُ عنْهُ: الإعْرَاضُ عَنِ الحقِّ، وتَرْكُ اتِّبَاعِهِ والعَمَلِ به[3].

وسَبَقَ بيانُ أنَّ الرسولَ ﷺ أرْسَلَهُ الله ﷻ بالعِلْمِ النَّافع الّذي تكْمُلُ بهِ قوّةُ الإنسانِ العِلْميَّةُ، والعَمَلِ الصَّالِح الّذي تَكْمُلُ به قوّةُ الإنسانِ العمليَّةُ؛ وعلَيْهِ، فإنَّ كمالَ الإنسان يَكُونُ بمعْرِفَةِ ما جاءَ بِهِ الرسولُ ﷺ واتِّبَاعِه.

وقد وصَفَ اللّهُ جلَّ وعَلاَ طائِفَةً من أنْبيَائِهِ - عليهم الصَّلاة والسَّلام - بكَمَالِ قُوَّتَيْهِمْ العِلْميَّةِ والعَمَليَّةِ، فقال: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾﴾ [ص: 45].

«فالأيْدِي: القوَّةُ في أمْرِ اللّه، والأبْصَارُ: البصائِرُ في دِينِ اللّهِ ﷻ؛ فبالبَصَائِرِ: يُدْرَكُ الحقُّ ويُعْرَفُ؛ وبالقُوَّةِ: يُتَمَكَّنُ مِنْ تَبْليغِهِ، وتَنْفيذِهِ، والدَّعْوَةِ إليه»[4].

هذا؛ وقدْ جاءَ في كِتَابِ اللّهِ ﷻ وسُنَّةِ نبيِّهِ ﷺ التَّعبيرُ عَنْ مَعْرِفَةِ الحَقِّ بلفْظِ: «**الهُدَى**»، وعن العَمَلِ به واتِّبَاعِهِ بلفظ: «**الرُّشْد**»؛ وكذلك جاء فيهما ذِكْرُ ضِدِّ هذَيْنِ الأمْرَيْن وهما: «**الضَّلاَلُ**» وهو: عَدَمُ معرفة الحقِّ، و«**الغيُّ**» وهو عَدَمُ اتِّباعِ الحقِّ والعَمَلِ به[5].

والهُدَى والرُّشْدُ يَشْتَرِكَان في معنًى، ويفْتَرِقَانِ في معنًى آخر؛ فبينهما عُمُومٌ وخُصُوصٌ من وجْهٍ؛ وكلاهما مَعْنَاهُ: الاسْتِقَامَةُ على الحقِّ؛ والهُدَى يَكُونُ بالعِلْمِ بِهِ، والرُّشْدُ بالعَمَلِ بِهِ.

وكذلك الضَّلاَلُ والغيُّ يَشْتَرِكَانِ في مَعْنَى الانْحِرَافِ عَنِ الحَقِّ، والضَّلاَلُ يختصُّ بعَدَمِ العِلْمِ به، فهو يَعُودُ إلى فَسَادٍ في الفَهْمِ؛ والغيُّ بعَدَمِ العَمَلِ به، فهو يعودُ إلى فسادٍ في القَصْدِ.

وإذا أنْعَمْنَا النَّظَرَ في كِتَابِ اللّهِ ﷻ، وَجَدْنَا أنَّ اللّهَ ﷻ كثيرًا ما يُقَابِلُ بَيْنَ الهُدَى

(3) انظر: «إغاثة اللّهفان من مصايد الشّيطان» لابن القيم (1/24 - 25، ط: دار الفكر).

(4) قاله الإمام ابن القيِّم في «الوابل الصيِّب» (ص136، ط: دار الفوائد).

(5) انظر: «فتاوى ابن تيمية» (10/40 و568)، «إغاثة اللّهفان» لابن القيِّم (1/15).

والضَّلَالِ، وبَيْنَ الرُّشْدِ والغَيِّ، وذلك في مِثْلِ قَوْلِه ﷻ: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾ [البقرة: 16]، وقَوْلِهِ ﷻ: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ۚ﴾ [الأنعام: 125]، وقوْلِه: ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾ [الأعراف: 178]؛ وفي مثل قوْلِه تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ﴾ [البقرة: 256]، وقوْلِه: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأعراف: 146].

كما أنَّ اللَّهَ ﷻ نَزَّهَ نبيَّهُ ﷺ عن الضَّلَالِ والغَيِّ، فقال: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم: 1 - 4].

هذا في الكتَابِ؛ أمَّا في السُّنَّةِ فَقَدْ وَصَفَ النَّبيُّ ﷺ خُلَفَاءَهُ رضي الله عنهم بالهُدَى والرُّشْدِ اللَّذَيْنِ يسْتَلْزِمَانِ معْرِفَةَ الحقِّ، والعملَ به، فَعن العِرْبَاضِ بن سارية رضي الله عنه قال: صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا فَوَعَظَنَا مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ، وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَأَنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ، فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا؟ فَقَالَ: «**أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ**»(6).

فتَبيَّنَ حينَئِذٍ أنَّ الضَّلَالَ: فَسَادٌ في قُوَّةِ الإنْسَانِ العِلْميَّةِ، والغيَّ: فسادٌ في قُوَّتِه العَمَليَّةِ؛ وبهَذَا وذَاكَ يكونُ فسادُ دينِهِ؛ لهذا كان أصْلُهُما من الشَّيْطانِ الرَّجيمِ، فقد قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ۖ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يس: 60 - 62]، وقال أيضًا مُخَاطِبًا إبْليسَ: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر: 42].

---

(6) **صحيح**: رواه الترمذي، وأبو داود، وابن ماجه، انظر: «الصَّحيحة» (937 و2735).

كما أنَّ فَسَادَ إحْدَى هاتَيْن القُوَّتَيْن في الإنْسَانِ، هو خروجٌ عن الصِّراطِ المستقيمِ الَّذي هو صراطُ المُنْعَمِ عَلَيْهِم، والمُغَايِرِ لصراطِ الضَّالِّينَ وهُمُ النَّصَارَى، الَّذين قال الله ﷻ فيهم: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾ [المائدة: 77]، وصراطِ المغضوبِ عَلَيْهِم وهُمُ اليهودُ الغَاوون، الَّذين قال الله ﷻ فيهم: ﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: 146]، ومِصْدَاقُ ذلك في حَدِيثِ عديِّ ابنِ حَاتِمِ الطَّائيِّ رضي الله عنه مرفوعًا: «**اليَهُودُ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ، وَالنَّصَارَى ضَالُّونَ**»[7]، فمَنْ ضَلَّ عَنِ الحقِّ: ففيه شَبَهٌ مِنَ النَّصارَى، ومَنْ عَرَفَ الحقَّ ولَمْ يتَّبِعْهُ: ففيه شَبَهٌ مِنَ اليهود.

إذا تقرَّرَ هذا، فإنَّ سَبَبَ الضَّلالِ والغَيِّ أمران:

أوَّلُهُما: ما خُلِقَ عليه الإنْسَانُ من الجَهْلِ والظُّلْمِ، إذْ قال اللهُ ﷻ: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب: 72]، فالجَهْلُ مانِعٌ له مِنْ مَعْرِفَةِ الحَقِّ، والظُّلْمُ مانِعٌ له مِنِ اتِّبَاعِهِ؛ لهذا قال الله ﷻ عَنْ فِرْعَوْنَ وقوْمِهِ: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: 13 ـ 14].

مِنْ أجْلِ ذلك أنْزَلَ اللهُ ﷻ مَعَ رُسُلِهِ ـ عليهم الصَّلاة والسَّلام ـ الكُتُبَ الَّتي فيها العِلْمُ دَوَاءً لِلْجَهْلِ، والميزَانَ الذي فِيهِ العَدْلُ دَوَاءً للظُّلْمِ، فقال سبحانه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: 25]، وقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ [الشورى: 17]؛ فالعَمَلُ بالشَّريعَةِ كَفِيلٌ بعِلاجِ هَذَيْنِ الدَّاءَيْنِ.

الأمْرُ الثاني: تعرُّضُ الإنْسَانِ لفِتْنَتَيْنِ عظيمتَيْنِ، هما مَدْخَلُ الشَّيْطانِ لإفْسَادِ قُلُوبِ بني آدم[8]:

فالضَّلالُ: سببُه فِتْنَةُ الشُّبُهات، وهي: البِدَعُ والأهْواءُ؛ لهذا قال النَّبيُّ ﷺ في حديث العرباض المذْكُورِ آنِفًا: «**وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ**» أي: مُوقِعَةٌ لُمقْتَرِفِها في الضَّلالِ.

(7) **صحيح**: رواه أحمد والتِّرمذي وابن حِبَّان، انظر: «الصَّحيحة» (3263).

(8) انظر: «فتاوى ابن تيمية» (28/143)، «مفتاح دار السَّعادة» لابن القيِّم (1/40 ـ ط: دار الفكر).

والبدْعَةُ مَقْرونَةٌ بالهَوَى، لأَجْلِ كَوْنِ اتِّبَاعِ الهَوَى مُضلاً لِصَاحِبِهِ أيْضًا، فَقَدْ وَصَمَ اللهُ ﷻ بالضَّلالِ مَن اتَّبعَ هَوَاهُ بغَيْرِ عِلْمٍ فقال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: 119]، وقُرِئَ: ﴿لَيَضِلُّونَ﴾ بالفَتْحِ؛ وقال ﷻ: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ [الروم: 29]، وقال: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: 26].

واسْتِنَادًا إلى هذه الآيات وأمْثالِهاَ قالَ شيخُ الإسلام ابْنُ تيميَّةَ كَمَا في «المجموع» (28/133): «وَلِهَذَا كَانَ مَنْ خَرَجَ عَنْ مُوجِبِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنْ الْعُلَمَاءِ وَالْعُبَّادِ، يُجْعَلُ مِنْ أَهْلِ الأَهْوَاءِ؛ كَمَا كَانَ السَّلَفُ يُسَمُّونَهُمْ أَهْلَ الأَهْوَاءِ، وَذَلِكَ أنَّ كُلَّ مَنْ لَمْ يَتَّبِعِ الْعِلْمَ، فَقَدْ اتَّبَعَ هَوَاهُ؛ وَالْعِلْمُ بالدِّينِ لا يَكُونُ إلاَّ بهُدَى اللهِ الَّذِي بَعَثَ بِهِ رَسُولَهُ».

ومِنْ هُنَا نَفْهَمُ لماذا جعَلَ اللهُ ﷻ اتِّبَاعَ الهَوَى، بإزَاءِ الاسْتِجَابة للرَّسُولِ ﷺ ومَا جَاءَ بِهِ مِنَ العِلْمِ والهُدَى، فقال ﷻ: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص: 50]، وقال أيضًا: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ۝٢٣﴾ [النجم: 23].

أمَّا الغيُّ: فسببُهُ فتنةُ الشَّهَوَاتِ وهي: المعَاصِي وفِسْقُ الأعْمَالِ، لهذا قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ۝٥٩﴾ [مريم: 59]، وقال أيضًا: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۝١٧٥ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَـٰهُ بِهَا وَلَـٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [الأعراف: 175 - 176]؛ وهذا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللهُ ﷻ لِمَنْ آتَاهُ اللهُ عِلْمًا، ولكنَّه يَعْمَلُ بخِلافِهِ، فهو يَعْرِفُ الحَقَّ ولكن يصُدُّهُ عن العملِ بهِ اتِّباعُهُ لِهَوَاهُ وشَهَوَاتِهِ.

ومِنْ ذلك أيضًا أنَّ الخَمْرَ - وهي من كبائرِ الذُّنوب - مُوجِبَةٌ للغَيِّ؛ ففي «الصَّحيحَيْنِ» عن أبي هريرة رضي الله عنه: «**أنَّ النَّبيَّ ﷺ أُتِيَ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِهِ بِقَدَحَيْنِ مِنْ خَمْرٍ وَلَبَنٍ؛ فَنَظَرَ إِلَيْهِمَا، فَأَخَذَ اللَّبَنَ؛ فَقَالَ لَهُ جِبْرِيلُ: الحَمْدُ للهِ الَّذِي هَدَاكَ لِلْفِطْرَةِ؛ لَوْ أَخَذْتَ الخَمْرَ غَوَتْ أُمَّتُكَ**».

من أجْلِ ذلك كُلِّهِ حَذَّر النبيُّ ﷺ أمَّته من

هاتيْنِ الفِتْنَتَيْن العَظيمَتَيْنِ، فعن أبي بَرزَةَ الأسْلَمي رضي الله عنه مرفوعًا: «**إنَّمَا أخْشَى عَلَيْكُمْ شَهَوَاتِ الغَيِّ في بُطُونِكُمْ وفُرُوجِكُمْ، ومُضِلَّات الهَوَى**»(9).

وقد جمَعَ اللهُ عز وجل بَيْنَ هاتَيْنِ الفِتْنَتَيْنِ في قوله: ﴿**كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ**﴾ [التوبة: 69]؛

فقوله عز وجل: ﴿**فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ**﴾ أي: تمتَّعُوا بنصيبِهِمْ مِنَ الدُّنيا وشَهَواتِها ـ والخَلَاقُ هو: النَّصيبُ المُقَدَّرُ ـ وهذه هي فِتْنَةُ الشَّهَوَاتِ؛ ثمَّ قال عز وجل: ﴿**وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ**﴾ فهذا الخوْضُ بالباطل هو: فتنة الشُّبُهَات(10).

أمَّا درْءُ هاتَيْنِ الفتْنَتَيْن ودَفْعُهُما فيكون بأمْرَيْن اثنَيْنِ وهما: الصَّبْرُ واليَقِينُ؛ فباليَقِينِ الَّذي هو ثمرَةُ العِلْمِ النَّافع: تُدْفَعُ فتْنَةُ الشُّبُهات؛ وبالصَّبْرِ: تُدْفَعُ فِتْنَةُ الشَّهَوَات؛ لهذا قال اللهُ عز وجل في وصْفِ عِبَادِهِ المؤمنين الصَّالحين: ﴿**وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ۝٣**﴾ [العصر: 3]، فتواصَوْا بالحَقِّ الَّذي يَدْفَعُ الشُّبُهَاتِ، والصَّبْرِ الَّذي يَكُفُّ عَنِ الشَّهَواتِ؛ كما جَعَلَ سبحانه الإمَامَةَ في الدِّينِ مَنُوطَةً بهَذَيْنِ الأَمْرَيْنِ فقال: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ ۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ۝٢٤**﴾ [السجدة: 24]، وأمَرَ اللهُ عز وجل نبيَّهُ ﷺ بهاتيْن الخَصْلَتَيْنِ العظيمَتَيْنِ فقال: ﴿**فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ۝٦٠**﴾ [الروم: 60](11).

وآخِرُ دَعْوَانا أنِ الحمْدُ للهِ ربِّ العالَمين.

(9) **صحيح**: رواه أحمد وغيره، انظر: «صحيح التَّرغيب» (52).

(10) انظر: «اقتضاء الصِّراط المستقيم» لشيخ الإسلام ابن تيمية (1/117 ـ 121، ط: العقل).

(11) انظر: «إغاثة اللَّهفان» لابن القيِّم (2/167).

الإعلام بخصائص أمَّة الإسلام

عبد الغني عوسات

إنَّ الله تعالى فضَّل الأمَّة المحمَّديَّة على سائر الأمم والبريَّة، وجعلها القدوة المثاليَّة، والأسوة الواقعيَّة، والمرآة الحقيقية لكلِّ الإنسانيَّة، وهي الأمَّة الوحيدة الَّتي توسم بأنَّها سويَّة؛ سويَّة في صفاتها وسماتها، وخصائصها ومقوِّماتها، وسنيَّة في موازينها ومقاييسها، وسُنِّيَّة في منهاجها وسبيلها، وهَديَّة في مواردها ومصادرها، ميزة ومزيَّة، لقد استوفرت أسباب الخيريَّة، واستوفت أبواب الفضيلة، واستجمعت حقيقة العبوديَّة على مراد ومرضاة ربِّ البريَّة، فاجتباها على كلِّ الأمم، ورفعها إلى أعلى القمم، وآثرها بأقوى الهمم وأنقى الذِّمم، ولا هداية لأمَّة إلاَّ إذا كانت على دينها الظَّاهر والخاتم للأديان، ولا صلاح لقوم إلاَّ إذا صار إلى ملَّتها المستوعبة والجامعة لما يصلح ويحتاجه الإنسان، وسار على نهجها، بصدق وإيمان واتبع سبيلها على بصيرة وبرهان، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾ [الفاتحة: 6 ـ 7]، وقال تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ [الأنعام: 153]، قال ابن القيم: «وهذا الصراط المستقيم الذي وصانا الله تعالى باتباعه هو الصراط الذي كان النبي ﷺ عليه وأصحابه، وهو قصد السبيل، وما خرج عنه فهو من السبل الجائرة»[1]، قال تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ﴾ [البقرة: 137].

والَّذين أعرضوا عن الأدلاَّء الحكماء والدُّعاة النُّجباء الأُمناء، مستكبرين عن متابعتهم ومغترِّين بعقولهم وفهومهم، فهم الهالكون الخاسرون،

(1) «إغاثة اللَّهفان» (1/131)

قال رسول الله ﷺ: «**لَقَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى مِثْلِ الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا، لاَ يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إلاَّ هَالِكٌ**»[2]، وقال تعالى: ﴿**وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾**﴾ [النساء: 115].

ذلك أنَّ هذه الأمَّة لما هي عليه من القوامة على دين الله والمداومة لطاعته والفهامة لخطابه واتِّقائه حقَّ تقاته، وغير ذلك من وجوه عبادته، فكانت حقًّا قديرةً على هذا التَّحصيل وجديرةً بهذا التَّفضيل، وتأمَّل في هذا التَّأسيل، قال تعالى: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ**﴾ [آل عمران: 110]،

فقد حباها الله بمكارم جميلة وكرَّمها بفضائل جزيلة وخصَّها بخصائص جليلة ـ تمنعها من التَّحيُّز وتنفعها في التَّميُّز؛ ومن هذه الخصائص:

1 ـ أنَّها خير الأمم وأكرمها على الله تعالى:

فقد مدحهم الله تعالى حيث قال: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ**﴾ [آل عمران: 110]، وقال رسول الله ﷺ: «**إِنَّكُمْ تُتِمُّونَ سَبْعِينَ أُمَّة، أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللهِ**»[3].

قال المناوي: «ويظهر هذا الإكرام في أعمالهم، وأخلاقهم، وتوحيدهم، ومنازلهم في الجنَّة، ومقامهم في الموقف، ووقوفهم على تلٍّ يشرفون عليهم، إلى غير ذلك؛ وممَّا فضِّلوا به: الذَّكاء، وقوَّة النهم، ودقَّة النَّظر، وحسن الاستنباط، فإنَّهم أوتوا من ذلك ما لم ينله أحد ممَّن قبلهم»[4].

2 ـ الوسطيَّة:

وكذلك اختار لهذه الأمَّة الاعتدال والوسطيَّة شعارًا مميِّزًا لها، وجعل ذلك من أبرز خصائصها، قال تعالى: ﴿**وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا**﴾ [البقرة: 143]، قال ابن جرير رحمه الله: «يعني ـ جلَّ ثناؤه ـ بقوله: ﴿**وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا**﴾ [البقرة: 143]، كما هديناكم أيُّها المؤمنون بمحمَّد ﷺ وبما جاءكم به من عند الله، فخصَّصناكم بالتَّوفيق لقبلة إبراهيم وملَّته، وفضَّلناكم بذلك على من سواكم من أهل الملل، كذلك خصَّصناكم ففضَّلناكم على غيركم من أهل الأديان؛ بأن جعلناكم أمَّة وسطًا».

(2) أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (48).

(3) الترمذي (3001)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (4065).

(4) «فيض القدير» (2/553).

وقال: «وأرى أنَّ الله ـ تعالى ذكره ـ إنَّما وصفهم بأنَّهم وسط؛ لتوسُّطهم في الدِّين، فلا هم أهل غلوٍّ فيه، غلوّ النَّصارى الَّذين غلوا بالتَّرهُّب، وقيلهم في عيسى ما قالوا فيه، ولا هُم أهلُ تقصير فيه تقصيرَ اليهود؛ الَّذين بدَّلوا كتاب الله، وقتلوا أنبياءهم، وكذبوا على ربِّهم، وكفروا به، ولكنَّهم أهل توسُّط واعتدال فيه، فوصفهم الله بذلك، إذ كان أحبَّ الأمور إلى الله أوسطها»[5].

وقال العلاَّمة السَّعدي: «فلهذه الأمَّة من الدِّين أكمله، ومن الأخلاق أجلُّها، ومن الأعمال أفضلها، ووهبهم الله من العلم والحلم، والعدل والإحسان ما لم يهبه لأمَّة سواهم، فلذلك كانوا أمَّة وسطا كاملين معتدلين»[6].

3 ـ شُهداء على الأمم:

وجعلها الأمَّة الشَّاهدة على الأمم يوم القيامة صادقةً عادلةً منزِّلاً إيَّاها منزلة العدول من الحكَّام، وذلك لقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: 143]، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَجِيءُ نُوحٌ وَأُمَّتُهُ، فَيَقُولُ اللهُ: هَلْ بَلَّغْتَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّي، فَيَقُولُ لأُمَّتِهِ: هَلْ بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: لا، مَا جَاءَنَا مِنْ نَبِيٍّ، فَيَقُولُ لِنُوحٍ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُه، فنشهد أنه قد بلغ، وَهُوَ قَوْلُهُ جل ذكره: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: 143]، والوسَطُ: العَدْلُ»[7].

وإنَّ شهادتها لا تخصُّ قوم نوح فحسب، بل تعمُّ الأقوام جميعًا، وذلك ما دلَّت عليه الآثار والأخبار، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «وَيَجِيءُ النَّبِيُّ يَوْمَ القِيَامَةِ وَمَعَهُ الرَّجُلُ، وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلاَنِ، وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الثلاَثَةُ، وَأَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ، فَيُقَالُ لَهُ: هَلْ بَلَّغْتَ قَوْمَكَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيُدْعَى قومه فَيُقَالُ لَهُمْ: هَلْ بَلَّغَكُمْ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: لاَ، فَيُقَالُ لَهُ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ، فَيُدْعَى مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ فَيُقَالُ: هَلْ بَلَّغَ هَذَا قَوْمَه؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيُقَالُ: وَمَا علمكم بذلكَ؟ فَيَقُولُونَ: جَاءَنَا نَبِيُّنَا فَأَخْبَرَنَا أَنَّ الرُّسُلَ قَدْ بَلَّغُوا فَصَدَّقْنَاهُ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ

(5) «جامع البيان» (2/ 226).

(6) «تيسير الكريم الرحمن» (ص72).

(7) أخرجه البخاري (3161).

﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: 143][8].

4 ـ شهداء الله في الأرض:

وكما جعلهم الله خيارا وعدولا في أقوالهم وأفعالهم وإرادتهم استحقوا أن يكونوا شهداء الله في الأرض، فأشاد بهم وأثنى عليهم، وقبل شهادتهم وجعلهم حجة على غيرهم.

عن أنس رضي الله عنه قال: مُرَّ على النَّبيِّ بجنازة فأثنوا عليها خيرًا، فقال: «وَجَبَتْ»، ثمَّ مُرَّ بأُخرى فأثنوا عليها شرًّا، فقال: «وَجَبَتْ»، فقيل: يا رسول الله! قلت لهذا وجبت، ولهذا وجبت؟ قال: «**شَهَادَةُ القَوْمِ، المُؤْمِنُونَ شُهَدَاءُ اللهِ فِي الأَرْضِ**»[9].

وعنه، قال: «مُرَّ على النَّبيِّ ﷺ بجنازة فأُثنِيَ عليها خيرًا فقال: نبيُّ الله ﷺ: «**وَجَبَتْ وَجَبَتْ وَجَبَتْ**»، ثمَّ مُرَّ بجنازة فأثني عليها شرًّا، فقال نبيُّ الله ﷺ: «**وَجَبَتْ وَجَبَتْ وَجَبَتْ**»، فقال عمر: فِدًى لكَ أبي وأمِّي، مُرَّ بجنازة فأُثنيَ عليها خيرًا: فقلت: وجبت وجبت وجبت، ومُرَّ بجنازة فأُثنيَ عليها شرًّا فقلت: وجبت وجبت وجبت؟ فقال رسول الله ﷺ: «**مَنْ أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْرًا وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ، وَمَنْ أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرًّا وَجَبَتْ لَهُ النَّارُ، المَلائِكَةُ شُهَدَاءُ اللهِ فِي السَّمَاءِ وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ فِي الأَرْضِ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ فِي الأَرْضِ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ فِي الأَرْضِ، المُؤْمِنُونَ شُهَدَاءُ اللهِ فِي الأَرْضِ، [إنَّ للهِ مَلائِكَةً تَنْطِقُ عَلَى أَلْسِنَةِ بَنِي آدَم لِمَا فِي المَرْءِ مِنَ الخَيْرِ وَالشَّرِّ]**»[10].

5 ـ وأنَّها صاحبة الفضل الظَّاهر والجزاء الوافر ولو بالعمل القليل غير الكثير:

وذلك لما أخبر به النبيُّ المصطفى ﷺ حيث قال: «**إِنَّمَا بَقَاؤُكُمْ فِيمَنْ سَلَفَ مِنَ الأُمَمِ كَمَا بَيْنَ صَلاَةِ العَصْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ أُوتِيَ أَهْلُ التَّوْرَاةِ التَّوْرَاةَ فَعَمِلُوا بِهَا حَتَّى مُنْتَصَفِ النَّهَارِ حَتَّى عَجَزُوا، وَأُعْطُوا قِيرَاطًا قِيرَاطًا، ثُمَّ أُوتِيَ أَهْلُ الإِنْجِيلِ الإِنْجِيلَ فَعَمِلُوا بِهِ حَتَّى صُلِّيَتْ العَصْرُ ثُمَّ عَجَزُوا فَأُعْطُوا قِيرَاطًا قِيرَاطًا ثُمَّ أُوتِيتُمُ القُرْآنَ فَعَمِلْتُمْ به حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ فَأُعْطِيتم قِيرَاطَيْنِ قِيرَاطَيْنِ، فَقَالَ أَهْلُ الكِتَابِ: هَؤُلاَءِ أَقَلُّ مِنَّا عَمَلاً وَأَكْثَرُ أَجْرًا، قَالَ اللهُ: هَلْ ظَلَمْتُكُمْ مِنْ حَقِّكُمْ شَيْئًا؟ قَالُوا:**

(8) أخرجه ابن ماجه (4284) وأحمد (3/58)، «السلسلة الصحيحة» (2448).

(9) البخاري (2499).

(10) أخرجه مسلم (2243)، والزيادة للحاكم (3/425) وجعل الله تعالى شهادتهم نافذة ـ إكراما وإفضالا ـ فعن يزيد بن شجرة قال: خرج رسول الله ﷺ في جنازة، فقال الناس: خيرا وأثنوا عليه خيرا، فجاء جبريل فقال: «**إنَّ الرَّجلَ ليسَ كما ذكروا ولكن أنتم شهداء الله في الأرض، وقد غفر له ما لا يعلمون**»، راجع «الصحيحة» (1312)، «والمخاطبون بذلك من الصحابة ومن كان على صفتهم من الإيمان» [«فتح الباري» (3/229)].

لا، فَقَالَ: فَهُوَ فَضْلِي أُوتِيهِ مَنْ أَشَاءُ»[11].

6 - وهي أمَّة اجتباها ربُّها واصطفاها على غيرها وسماها بما ينفعها إكرامًا وإفضالاً:

قال تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ ۖ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨)﴾ [الحج: 78].

7 - وهداها إلى خير الأعياد:

فأمَّا العيد الأسبوعي الَّذي هو يوم الجمعة فإنَّ الله قد أضلَّ عنه الأمم السَّابقة وهدى هذه الأمَّة إليه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَضَلَّ اللهُ عَنِ الجُمُعَةِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا فَكَانَ لِلْيَهُودِ يَوْمَ السَّبْتِ وَلِلنَّصَارَى يَوْمَ الأَحَدِ فَجَاءَ اللهُ بِنَا وَهَدَانَا لِيَوْمِ الجُمُعَةِ»، وفي رواية عنه أيضًا: «بيدَ أَنَّهُمْ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا ثُمَّ هَذَا يَوْمُهُمُ الَّذِي فُرِضَ عَلَيْهِمْ فَاخْتَلَفُوا فِيهِ، فَهَدَانَا اللهُ، فَالنَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ اليَهُودُ غَدًا وَالنَّصَارَى بَعْدَ غَدٍ».

وأمَّا العيد السَّنوي فإنَّ الله امتنَّ عليها بخير الأعياد، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قدم رسول الله ﷺ ولأهل المدينة يومان يلعبون فيهما في الجاهليَّة، فقال: «قَدِمْتُ عَلَيْكُمْ وَلَكُمْ يَوْمَانِ تَلْعَبُونَ فِيهِمَا فِي الجَاهِلِيَّةِ وَقَدْ أَبْدَلَكُمُ اللهُ خَيْرًا مِنْهُمَا يَوْمَ النَّحْرِ وَيَوْمَ الفِطْرِ»[12].

8 - وهي مُشبَّهة بالمطر خيرًا ونفعًا:

فعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ أُمَّتِي مَثَلُ المَطَرِ؛ لاَ يُدْرَى أَوَّلُهُ خَيْرٌ أَمْ آخِرُهُ»[13].

قَالَ الطِّيبِيُّ: «وَتَمْثِيلُ الأُمَّةِ بِالمَطَرِ إِنَّمَا يَكُونُ بِالهُدَى والعِلْمِ كما أَنَّ تَمْثِيلَهُ ﷺ الغَيْثَ بِالهُدَى والعِلْمِ، فَتَخْتَصُّ هَذِهِ الأُمَّةُ المُشَبَّهَةُ بِالمَطَرِ بِالعُلَمَاءِ الكَامِلِينَ مِنْهُمْ، المُكَمِّلِينَ لِغَيْرِهِمْ، فَيَسْتَدْعِي هَذَا التَّفْسِيرُ أَنْ يُرَادَ بِالخَيْرِ النَّفْعُ، فَلا يَلْزَمُ مِنْ هَذَا المُسَاوَاةُ فِي الأَفْضَلِيَّةِ، وَلَوْ ذُهِبَ إِلى الخَيْرِيَّةِ، فَالمُرَادُ وَصْفُ الأُمَّةِ قَاطِبَةً سَابِقِهَا وَلاحِقِهَا وَأَوَّلِهَا وآخِرِهَا بِالخَيْرِ، وَأَنَّهَا مُلْتَحِمَةٌ بَعْضُهَا مَعَ بَعْضٍ مَرْصُوصَةٌ بِالبُنْيَانِ مُفَرَّغَةٌ كَالحَلْقَةِ الَّتِي لا يُدْرَى أَيْنَ طَرَفَاهَا»[14].

---

(11) رواه البخاري (532)، وأحمد (6/2).

(12) رواه أبو داود (1134)، والنسائي (1556)، وانظر: «الصحيحة» (2021).

(13) أخرجه الترمذي (2869)، راجع «الصحيحة» (2286).

(14) «تحفة الأحوذي» (170/8)، وقال الرامهرمزي: «إن تعلق متعلق بظاهر الحديث فادعى عليه تناقضا في قوله ﷺ: «خير أمتي قرني ثم الذين يلونهم» فإن المعنى في قوله ﷺ: «لا يدرى أوله خير أم آخره» أن الخير شامل لها وإن كان معلوم أن القرن الأول خير من القرن الثاني وهذا كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 110].

9 ـ وأنَّها شطر أهل الجنَّة:

وذلك لما أخبر به النبي المصطفى ﷺ وبشَّر به أمَّته، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعًا: «يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ القِيَامَةِ: يَا آدَمُ! فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، فَيُنَادَى بِصَوْتٍ: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُخْرِجَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ، قَالَ: يَا رَبِّ وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ ـ أُرَاهُ قَالَ ـ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، فَحِينَئِذٍ تَضَعُ الحَامِلُ حَمْلَهَا، وَيَشِيبُ الوَلِيدُ، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى، وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ»، فشقَّ ذلك على النَّاس حتَّى تغيَّرت وجوههم، فقال النَّبيُّ ﷺ: «وَمِنْ يَأْجُوج ومأجوج تِسْعمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ وَمِنْكُمْ وَاحِدٌ ثُمَّ أَنْتُمْ فِي النَّاسِ كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جَنْبِ الثَّوْرِ الأَبْيَضِ، وَكَالشَّعْرَةِ البَيْضَاءِ فِي جَنْبِ الثَّوْرِ الأَسْوَدِ، وَإِنِّي لأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبع أَهْلِ الجَنَّةِ»، فَكَبَّرْنَا، ثُمَّ قَالَ: «ثُلُث أَهْلِ الجَنَّةِ»، فَكَبَّرْنَا، ثُمَّ قَالَ: «شَطْر أَهْلِ الجَنَّةِ» فَكَبَّرْنَا[15].

10 ـ وأنَّها الأمَّة الباقية المحفوظة التي لا يضرُّها من خالفها وخذلها من الأدعياء أو من أذاها وأساء إليها من الأعداء:

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: صلَّى بنا رسول اللَّه ﷺ يومًا صلاة فأطال فيها، فلمَّا انصرف، قلنا: يا رسول اللَّه أطلت اليوم الصَّلاة، فقال: «إِنِّي صَلَّيْتُ صَلاَةَ رَغْبَةٍ وَرَهْبَةٍ، سَأَلْتُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لأُمَّتِي ثَلاَثًا، فَأَعْطَانِي اثْنَتَيْنِ وَرَدَّ عَلَيَّ وَاحِدَة؛ سَأَلْتُهُ أَلاَّ يُسَلِّطَ عَلَيْهِم عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ، فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَلاَّ يُهْلِكَهُمْ غَرَقًا، فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَلاَّ يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ فَرَدَّهَا عَلَيَّ»[16].

11 ـ وأنَّها أمَّة مرحومة:

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «وَأُمَّتِي أُمَّةٌ مَرْحُومَةٌ، لَيْسَ عَلَيْهَا عَذَابٌ فِي الآخِرَةِ، إِنَّمَا عَذَابُهَا فِي الدُّنْيَا: الفِتَن وَالزَّلاَزِل وَالقَتْل وَالمَصَائِب»[17].

12 ـ وأنَّها موسومة بالسِّتر:

فإنَّ اللَّه يستر من لم يتقبل عمله من أفرادها، بينما فيما سلف من الأمم كانوا يقرِّبون القرابين فتأكل النَّار ما تُقبِّل منها وتدع ما لم يُتقبَّل، فيصبح العبد مفتضحًا[18]، قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ

(15) أخرجه البخاري ومسلم.

(16) أخرجه ابن ماجه (3895)، وأحمد (3/146).

(17) أخرجه أبو داود (4278)، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (959).

(18) «بداية السول في تفضيل الرسول» للعز بن عبد السلام (70) وساق الألباني رحمه الله شواهد تؤيد وتؤكد ذلك في تعليقه على الكتاب (70 ـ 72).

﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٢٧﴾ [المائدة: 27].

13 ـ وأنَّها أمَّة معصومة:

وذلك بأنَّ الله قد ضمن لها العصمة فلا تجتمع على ضلالة، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لاَ يَجْمَعُ اللهُ أُمَّتِي عَلَى ضَلاَلَةٍ أَبَدًا، وَيَدُ اللهِ عَلَى الجَمَاعَةِ**»[19]، وفي رواية: «**إِنَّ اللهَ قَدْ أَجَارَ أُمَّتِي أَنْ تَجْتَمِعَ عَلَى ضَلاَلَةٍ**»[20].

قال ابن تيمية رحمه الله: «والله تعالى قد ضمن العصمة للأمَّة، فمن تمام العصمة أن يجعل عددًا من العلماء إن أخطأ الواحد منهم في شيء كان الآخر قد أصاب فيه، حتَّى لا يضيع الحقُّ، ولهذا لما كان في قول بعضهم من الخطأ مسائل، كبعض المسائل الَّتي أوردها، كان الصَّواب في قول الآخر، فلم يتَّفق أهل السُّنَّة على ضلالة أصلاً، وأمَّا خطأ بعضهم في بعض الدين فقد قدَّمنا غير مرَّة أنَّ هذا لا يضرُّ كخطأ بعض المسلمين»[21].

14 ـ وأنَّها موسومة بالسناء المبين وموعودة بالتَّمكين والنَّصر إلى يوم الدِّين:

عن أبي بن كعب رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**بَشِّرْ هَذِهِ الأُمَّةَ بِالنَّصْرِ وَالسَّنَاءِ وَالتَّمْكِينِ، فَمَنْ عَمِلَ عَمَلَ الآخِرَةِ لِلدُّنْيَا لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ**»[22].

15 ـ وَأَنَّها أوَّل أمَّة حشرًا وحسابًا وقضاءً ودخولاً إلى الجنَّة.

وهذه الأمَّة وإن تأخَّر وجودها في الدُّنيا فإنَّها السَّابقة لكلِّ الأمم يوم القيامة، قال رسول الله ﷺ: «**نَحْنُ الآخِرُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا وَالأَوَّلُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَالمُقْضَى لَهُمْ قَبْلَ الخَلاَئِقِ**»[23].

وفي رواية: «**نَحْنُ الآخِرُونَ وَنَحْنُ السَّابِقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَنَحْنُ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ**»[24].

فهذه بعض الخصائص التي أكرم الله تعالى بها الأمَّة المحمَّدية، والفضائل التي حباها بها، فجعلها نبراسًا ومقياسًا لكلِّ الأنام، واختبارًا واعتبارًا لكلِّ الأقوام، والله نسأل أن يرزقنا إليها صدق الانتماء، ويهديها حسن الاقتداء، وبنبيِّها ﷺ خالص الائتساء، وبسلفها خير الاقتفاء، وعن غيرها البعد والانتفاء.

وسبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

---

(19) أخرجه الترمذي (2167)، انظر: «صحيح الجامع» (1848).

(20) «الصحيحة» (1331).

(21) «منهاج السنة» (3/408 ـ 409).

(22) أخرجه أحمد (5/134)، راجع: «صحيح الترغيب والترهيب» (23).

(23) أخرجه مسلم في «صحيحه» (856)، من رواية أبي هريرة وحذيفة بن اليمان.

(24) أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة.

فتاوى شرعية

أ.د. محمد علي فركوس
أستاذ بكلية العلوم الإسلامية بجامعة الجزائر

في حكم زكاة القرض

◆ السُّؤال:

إذا أقرض شخص شخصًا آخر مبلغًا من المال، فما هي تفاصيل قضيَّة زكاة هذا المال باعتبار حالة الدَّائن والمدين من حيث الاتِّفاق بينهما؟ أفتونا مأجورين. إن شاء الله. وجزاكم الله خيرًا.

◆ الجواب:

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على من أرسله الله رحمةً للعالمين وعلى آله وصحبه وإخوانه إلى يوم الدِّين، أمَّا بعد:

فمن أقرض غيره مالاً، فإمَّا أن يكون المال ميئوسًا منه أو مرجوًّا عَوْدُه إليه.

فإن كان المال ميئوسًا منه فلا زكاة فيه.

أمَّا إن كان مرجوًّا عَوْدُه إليه، ففيه حالات:

فإن كان الدَّائن المقرض يستطيع استرداد ماله من المدين المقترض في أيِّ وقت شاء، فإنَّه يزكِّيه بعد كلِّ حول قمريٍّ.

وإن كان لا يستطيع استرداده إلاَّ بعد مدَّة زمنيَّة، فإمَّا أن تكون المدَّة معلومة بالشُّهور أو السَّنوات، فإنَّه يزكِّي قرضه ويحتسبه مع أصل ماله إن وجد، وإمَّا أن تكون المدَّة مجهولة فإنَّه يزكِّيه لسنة واحدة على أرجح أقوال أهل العلم، ثمَّ لا يزكِّيه إلاَّ بعد قبضه، فإن قبضه زكَّاه للسَّنوات الَّتي لم يزكِّها، فإن لم يقبضه فلا زكاة له عليه بعد أن زكَّى السَّنة الأولى من قرضه، والعلم عند الله تعالى.

بيع الذَّهب نسيئة

◆ السُّؤال:

نرجو من فضيلة شيخنا الجواب على هذا السُّؤال مفصَّلاً كما عهدناه منكم، بارك الله فيكم.

تاجرٌ في الذَّهب (محلّ صائغ مجوهرات) عندما يشتري من صاحب المحلّ بالجملة يعطيه السِّلعة ويتراضيان فيما بينهما على أن يكون الثمن إلى أجل غير مسمًّى، ما حكم هذه المعاملة إذا تمَّ التَّراضي بينهما؟

◆ الجواب:

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على من أرسله الله رحمةً للعالمين، وعلى آله وصحبه وإخوانه إلى يوم الدِّين، أمَّا بعد:

فالعملة الورقيَّة هي عملة نقديَّة قائمة بذاتها، لها صفة الثَّمَنيَّة كاملة، وتجري فيها الأحكام الشَّرعيَّة المقرَّرة للذَّهب والفضَّة من جهة الرِّبَا والسَّلم والزَّكاة وما إلى ذلك من بقيَّة الأحكام، وهذا القول هو السَّائد حاليًّا ودرج عليه غالبيَّة المسلمين الملتزمين بالشَّريعة في معاملاتهم الماليَّة، وصدرت بموجبه قرارات في مجامعَ فقهيَّة، كما صدرت على وفقه كثيرٌ من الفتاوى الشَّرعيَّة.

وبناءً عليه، فإنَّ شراء الذَّهب بالفضَّة أو العكس أو بيعها بالورق النَّقدي يجوز التَّفاضل بينهما على اشتراط التَّقابض في المجلس الواحد، ويُعدُّ عدم التَّقابض - إذا وقع - ربا النَّسيئة، ذلك لأنَّ الوصف الجامع بين الذَّهب والفضَّة والأوراق النَّقديَّة هو الثمنيَّة، ومستند تجويز التَّفاضل في بيع الذَّهب والفضَّة مع اشتراط اتِّحاد مجلس العقد هو قوله ﷺ من حديث عبادة بن الصَّامت رضي الله عنه: «...**فَإِذَا اخْتَلَفَتْ هَذِهِ الأَصْنَافُ فَبِيعُوا كَيْفَ شِئْتُمْ إِذَا كَانَ يَدًا بِيَدٍ**»[1].

ثمَّ اعلم أنَّ حقَّ الله تعالى لا مدخل للتَّراضي فيه، أي لا يكفي لجوازه رضَا الآدميِّ، فرضاه غير معتبر فيه أصلاً كالرِّبَا والزِّنا والمقامرة والحدود ونحوها، وإنَّما الَّذي يقبل الصُّلح والإسقاط والمعاوضة عليها هو حقُّ الآدميِّ، فرضاه معتبر في الجواز، والعلم عند الله تعالى.

شراء السِّلعة وبيعها في السُّوق نفسه

◆ السُّؤال:

تاجر يشتري سلعة ويدفع عليها عربونًا، **ثمَّ يبيعها في نفس السُّوق بسعر أغلى، وهي لا تزال عند البائع، فهل هذه الصُّورة جائزة شرعًا؟ وجزاكم الله خيرًا.**

(1) أخرجه مسلم (4147)، وأحمد(23396)، والدارقطني في «السُّنن» (2915).

◆ الجواب:

الحمد لله ربِّ العالمين والصَّلاة السَّلام على محمَّد وعلى آله وصحبه والتَّابعين لهم بإحسان إلى يوم الدِّين، أمَّا بعد:

فإنَّ هذه الصُّورة من البيع غير جائزة لعدم حيازة المشتري سلعته إلى رحله وهو المكان الخاص به، ودليله حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «ابْتَعْتُ زيتًا في السُّوق، فلمَّا استوجبته لقيني رجل فأعطاني به ربحًا حسنًا، فأردت أن أضرب على يد الرَّجل، فأخذ رجل من خلفي بذراعي، فالتفت فإذا هو زيد بن ثابت، فقال: لا تبعه حيث ابتعته حتَّى تحوزه إلى رحلك، فإنَّ رسول الله ﷺ **نهى أن تباع السِّلع حيث تبتاع حتَّى يحوزها التُّجَّار إلى رحالهم**»[2]، ولأنَّ المشتري إذا لم يحزها أو يقبضها لا تدخل تحت ضمانه إذا تلفت، و يكون الضَّمان على حساب مال البائع، وفي ذلك ربح للمشتري لم يضمنه وقد نهى النَّبيُّ ﷺ في حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدِّه «**عن ربح مَا لَمْ يضمن**»[3] والربح الذي يضمنه غيره ظلم، والظلم منهيٌّ عنه شرعا، والله أعلم.

(2) رواه أحمد (21160)، وأبو داود (2271)، انظر: «صحيح أبي داود» (3499).

(3) رواه أصحاب السنن، وأحمد (6879)، انظر: «الإرواء» (147/5).

في حكم الزَّواج بامرأة تابت من زناها

◆ السُّؤال:

فضيلة الشَّيخ، هل أستطيع أن أتزوَّج بالمرأة الَّتي زنيت بها؟ مع العلم أنَّها تابت إلى الله، غير أنَّها زنت قبل توبتها مع رجل آخر فأدَّى بها ذلك إلى فقدانها لبكارتها، وجزاكم الله خيرًا.

◆ الجواب:

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على من أرسله الله رحمةً للعالمين، وعلى آله وصحبه وإخوانه إلى يوم الدِّين أمَّا بعد:

فلا يجوز التَّزوُّج بالمرأة الَّتي زُنِيَ بها إلاَّ بشرطين:

الشَّرط الأوَّل: التَّوبة النَّصوح لكلِّ واحد منهما، وذلك بالتَّخلِّي عن هذه المعصية وسائر المعاصي، والنَّدم على هذا الذَّنب وسائر الذُّنوب السَّالفة، والعزم على عدم العودة إليه في مسقبل العمر لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [التحريم: 8]، فإنْ تابَا انتفى عنهما وصف الزِّنى لقوله ﷺ: «**التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ**

كَمَنْ لاَ ذَنْبَ لَهُ»[4]، لكن إن لم يتوبا، فإنَّ الزَّانية لا يجوز أن يتزوَّجها مؤمنٌ والزَّاني لا يجوز للإنسان أن يزوِّجه ابنته لقوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ [النور: 3].

الشَّرط الثاني: الاستبراء بحيضة واحدة حتَّى يتأكَّد من براءة رحمها قبل العقد عليها، فإن تبيَّن أنَّها حامل فلا يجوز العقد عليها حتَّى تضع الحمل وعلى مذهب الجمهور أنَّ ولد الزِّنى لا يلحق بالزَّاني خلافًا لابن تيميَّة ـ رحمه الله تعالى ـ لقوله ﷺ: «**الوَلَدُ لِلْفِرَاشِ وَلِلْعَاهِرِ الحجَرُ**»[5]، والعلم عند الله تعالى.

في حكم حَلِّ سِحْرٍ بسحر مماثل

◆ **السُّؤال:**

هل يجوز ردُّ السِّحْرِ بسحرٍ مماثلٍ؟ أو بالأحرى أيجوز الدِّفاعُ عن النَّفس بسِحْرٍ ضدَّ سِحْرٍ ما، رغم أنِّي أعلم أنَّه من السَّبع الموبقات، وهذا مُلَخَّصُ مشكلتي: لي من الأقارب مَن عُمي بصرُه لثلاثِ مرَّات، والرُّقاة يقولون: أنَّه بسبب ساحرٍ أو مُشَعْوِذٍ بطلبٍ من إنسان يريدُ إفسادَ العلاقةِ الزَّوجيةِ، ولا ندري ما السَّببُ؟ وفي كلِّ مرَّة بعد الرُّقية يأتي الله بشفائه بعد مدَّة، ثمَّ تعود العِلَّة ويذهب البصر من جديد، وأنت تعلم ما للبصر من أهميَّة عندنا!! لذلك نريد إيجاد الحلِّ الَّذي بإذن الله يحمينا من هؤلاء عَبَدَةِ الشَّيطانِ، أيحقُّ لي أن أقع في فَخِّهم وأستخدم سِحْرًا مماثلاً لردِّ ذلك السِّحر؟ أم ماذا أستطيع أن أفعل؟ وجزاك الله خيرًا.

◆ الجواب:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على من أرسله اللهُ رحمةً للعالمين، وعلى آله وصحبه وإخوانه إلى يوم الدِّين، أمَّا بعد:

فاعلم أنَّ العلاجَ بالسِّحر محرَّمٌ شرعًا لقوله تعالى: ﴿**وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ**

(4) أخرجه ابن ماجه (4250)، والبيهقي: (21150)، والطبراني في «المعجم الكبير» (10281)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال ابن حجر في «فتح الباري» (13/557): «سنده حسن»، وحسّنه الألباني في «صحيح الجامع» (3008).

(5) أخرجه البخاري (2053)، ومسلم (3686)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [البقرة: 102]، وقولِه تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴿٦٩﴾﴾ [طه: 69]، ولقولِه ﷺ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ - وذكر منها - السِّحْرَ»[6]، وثبت - أيضًا - من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «إِنَّ الرُّقَى وَالتَّمَائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ»[7].

فالمقصود بالرُّقى في الحديث غير الشَّرعية، والتَّميمة ما يُعلَّقُ لدفع العَين، والتِّوَلَةُ: هي شيءٌ كانت المرأة تجلِبُ به محبَّةَ زوجِهَا، وهو ضَرْبٌ من السِّحر، فأفاد الحديث منعَ التَّداوي بالسِّحر، وما كان فيه شيءٌ منافٍ للتَّوحيد بحيث يصيرُ القلبُ معلَّقًا بغيرِ اللهِ في دفع ضَرَرٍ أو جَلْبِ نفعٍ، وعن جابر ابن عبدِ الله رضي الله عنهما أنّ رسولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ عن النُّشْرَةِ؟ فقال: «هِيَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ»[8]، وعملُ الشَّيطانِ مذمومٌ وقبيحٌ شرعًا يحرم فعلُه، وقد دلَّتِ السُّنَّةُ على ما هو مشروعٌ من الرُّقى، قال ابن القيم رحمه الله: «وَمِنْ أنفعِ علاجاتِ السِّحر الأدوية الإلهيَّة، بل هي أدويتُه النَّافعةُ بالذَّات، فإنَّه من تأثيرات الأرواح الخبيثة السُّفليَّة، ودفعُ تأثيرها يكون بما يعارضُها ويقاومُها من الأذكار، والآيات، والدَّعوات الَّتي تُبْطِلُ فعلَها، وتأثيرَها»[9].

فالحاصلُ: أنَّ ما كان بالقرآن والدَّعوات والأدويةِ المباحةِ فجائزٌ، وما كان منه بالسِّحر فيُحرم.

والعلمُ عند الله تعالى، وآخر دعوانا أنِ الحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه وإخوانه إلى يوم الدِّين، وسلَّم تسليمًا.

(6) أخرجه البخاري (2766)، ومسلم (272).
(7) أخرجه أبو داود (3858)، وابن ماجه (3660)، وأحمد: (3682)، وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» (331).
(8) أخرجه أحمد (3/294)، وأبو داود (3868)، وحسَّنه الحافظ في «الفتح» (10/233)، وعبد القادر الأرناؤوط في تخريج أحاديث «فتح المجيد» (343).
(9) «زاد المعاد» (4/126).

أعلام منسية:

الشيخ عمار بن الأزعر القماري السوفي

سمير سمراد
إمام أستاذ

هو الشيخ: عمّار بن عبد الله بن الطّاهر ابن أحمد بن محمَّد الهلالي القماري السُّوفي الجزائري ثمَّ المدني الشَّهير بعمَّار الأزعر.

هو: (الهلالي)، نسبةً إلى (بني هلال)، ولا يخفى (ما لهذه العائلة - عائلة الهلاليين - من الشُّهرة والمجد بين العرب منذ حلولهم بإفريقية سنة 446 هـ)[1].

وهو (القماري السوفي)؛ و(قمار)[2] بلدة من بلدان (سوف).

يقول الشَّيخ محمَّد السَّعيد الزَّاهري، - وهو يردُّ على من زعم: «أنَّ أهالي «وادي سوف» هم بربر» -:

«وإنَّ السوافة» هم عرب، وأبناء عرب، ...والَّذي يعرف «سوف» كما أعرفها أنا لا يستطيع أن يشكَّ في عروبتها... يوجد في «عربية سوف» كلمات بربرية هي أسماء أعلام لبعض الأمكنة أو لبعض أنواع التَّمر، من ذلك كلمة «سُوف» نفسها، ومعناها: «الوادي»، و«تكسبت» و«تاغزوت»، عَلَمَيْن لبَلْدَتين في «سوف»، ولكن ذلك كلّه من قبيل الأعلام، والأعلام لا تتغيَّر»[3].

◆ مولده:

يقول في ترجمةٍ لنفسه كتبها لمحمَّد سعيد دفتردار: «ولدت في بلدة قمار، في عام 1316هـ، ونشأت في عائلة فقيرة إلاَّ من الإيمان بالله»[4].

---

(1) «النجاح»، عدد: (1729)، 12 ربيع الثاني 1354هـ/ 14 جويلية 1935م، (ص3) مكاتبة عن قمار.

(2) (القاف) من (قمار) قاف (معقدة)، أو كما يقال: قاف (بدوية)، وقد أفاد صاحب مقال: (هل القاف المعقدة عربية؟) - نشرت في «الشهاب» لمج7، ج7، ص: 446 - 449] - نقلاً عن ابن خلدون، أنَّ هذا القاف المعقود (لغة مضر الأوَّلين)، كما أفاد أنَّ مخرج هذا الحرف (هو من مخرج الكاف).

(3) جريدة «النور»: 3 محرم 1351هـ/ 10 ماي 1932م، (ص2): مقال: (كتاب الجزائر - وصف وتحليل) الجزء الثاني.

(4) مجلة «المنهل» (ج8، س35، م30، شعبان 1389هـ/ أكتوبر - نوفمبر 1969م، (من أعلام المدينة المنورة...) بقلم محمد سعيد دفتردار.

◆ نشأته وتعليمه:

يقول: «ثمَّ ابتدأت أحفظ القرآن الكريم وأنا في سنٍّ مبكِّرة من حياتي في بلدة «فلياش» - قرية من قرى بسكرة - وأتممت حفظه في بلدة سيدي عقبة بجنوب الجزائر، ثم رجعت إلى مستحل رأسي، ولمَّا لم أجد بها ما كنت أصبو إليه من طلب العلم استعنت الله ورحلت إلى تونس مشيًا على الأقدام بصحبة والدي، وقد تكبدت مصاعب كثيرة عظيمة يهون أمرها على من طارت به الأشواق في طلب العلم والاكتراع من معينه الزُّلال، ودخلت توا جامع الزَّيتونة، وانخرطت في سلك التَّعلم وذلك في سنة 1334هـ...»[5].

◆ شيوخه في تونس:

يقول الشيخ عمَّار: «ومن فضل الله عليَّ أنِّي أدركت الكبار من هؤلاء العلماء منهم: الشَّيخ الصَّادق النيفر الملقَّب بسفينة الفقه،... الشَّيخ أبو الحسن النجَّار... الشَّيخ الزغواني... الشَّيخ عثمان ابن المكِّي التوزري... الشَّيخ الطَّاهر بن عاشور... الشَّيخ عبد العزيز جعيط... الشَّيخ محمَّد بن القاضي... الشَّيخ محمَّد الدامرجي... الشَّيخ محمَّد الجدمي البنزرتي،... وقرأت على غير هؤلاء... وبعد تمام الدِّراسة في تسع سنوات تخرَّجت بشهادة التَّطويع المعادلة لشهادة العالمية يومئذ وذلك سنة 1343هـ» اهـ[6].

◆ دوره في الحركة الإصلاحية:

«بعدما تخرَّج الشَّيخ عمَّار من جامع الزَّيتونة ونال الإجازة منه قرَّر العودة إلى بلدته وهو مليء بالعلم وبرأسه أفكارٌ إصلاحيَّة كثيرة، وما لبث أن استقرَّ حتَّى بدأ يلقي دروسًا بمسجد السُّوق العتيق، وبدأ بتغيير تلك المعتقدات الَّتي كانت موجودة رويدًا رويدًا، من ذبح ونذر وتقديس، وكان يواجه بالصَّدِّ، ولكنَّه بروح الصَّبر والجلد استطاع أن يغيِّر الباطل ويعرف النَّاس معنى «لا إله إلاَّ الله محمَّد رسول الله»، وقد ركَّز على التَّوحيد السَّلفي والفقه الإسلامي والتَّاريخ وعلوم اللُّغة العربيَّة من نحو وصرف وبلاغة وعروض وشعر، وأصبح يؤمُّ حلقته جمع غفير من الكبار والصِّغار، وبدأ الوعي الدِّيني ينتشر...»[7].

◆ الحالة العلميَّة في منطقة «سوف»:

بعث مكاتبٌ من بلدة «تبسة» (سنة: 1346هـ/ 1927م) إلى جريدة «النَّجاح» القسنطينيَّة، بهذه الكلمة الَّتي نشرت، تحت عنوان: «من تبسة إلى قمار»: «سعادة السَّيِّد مدير جريدة «النَّجاح»... وبعد

(5) المصدر السَّابق.

(6) المصدر السَّابق.

(7) «أعلام من أرض النُّبوَّة» لأنس يعقوب كتبي (139/2 - 145)، ط1/ 1415هـ - عن موقع «مركز دراسات المدينة المنورة».

فنطلب من سيادتك أن تنشر على لسان جريدة «النَّجاح» ما هو واقع بقمار، في مدَّة ثلاثة أعوام مضت منَّ اللهُ على هذه البلدة **بالفقيه النَّبيه العالم العلاَّمة السَّيِّد عمَّار بن الأزعر** المتطوِّع بالزَّيتونة[8] فبث علمه في البلدة فجزاه الله عنَّا كلَّ خير، والأهالي فرحون مستبشرون مسرورون بهذا البدر الطَّالع الَّذي أضاء على «قمار» ونواحيها، وقد اتَّفقت أهالي البلدة على مبلغ (307) فرنكًا يجازونه بها في كلِّ سنة، فأنجزوا ذلك في السَّنة الأولى والثانية وتأخَّروا بعد ذلك، مع أنَّ سكَّان البلدة (7500) نسمة، وكثيرهم أغنياء وتجَّار ولا يعلمون أنَّ شرف نفوسهم وشرف أبنائهم العلم، وبالعلم سادت الأمم... وبهذا الجواب نتقدَّم إلى أصحاب الغيرة الإسلامية والهمَّة العالية...»، (ميدة علي بن عمار ـ تبسة)[9].

ثمَّ بعد مضيِّ نحو سنة، نشرت «النَّجاح» لمكاتبها الخاص: «عن بلاد الصَّحراء: وادي سوف بعد عامين، نظرة عموميَّة في الحالة الرَّاهنة»، قال عن الحالة العلميَّة: «أمَّا الحالة العلميَّة فهي خائبة للنِّهاية بحيث لا يوجد في «الوادي» كلِّه وفي «الزقم» و«البهيمة» و«الدبيلة» و«سيدي عون» و«حاسي خليفة» و«الدرميني» مدرِّس غير «قمار» الَّتي يوجد بها العالم المتطوِّع الشَّيخ عمَّار بن الأزعر الَّذي كنَّا نشرنا مقالاً عن زهد أهل «قمار» فيه وتهاونهم بحقوقه في الصَّائفة الفارطة، فكان الأمر أن جمعوا فضلاءهم وجدَّدوا عنايتهم به، ...»[10].

لقي الشَّيخ عمَّار في سبيل نشر دعوته، عدَّة متاعب، واعترض طريقه سلطتان: «السُّلطة الاستعمارية» و«السُّلطة الطُّرقيَّة»، وقد أجبرتا الشَّيخَ على مغادرة «قمار» مهاجرًا، يصف الدُّكتور أبو القاسم سعد الله تلك البيئة بقوله: «الجهل مطبق، والطُّرقيَّة مستحكمة، والاستعمار بواسطة القائد مُسيطر ومخيف، يضاف إلى ذلك تقاليد بالية وعقليَّات جافة»، فهي إذًا «ظروف كلُّها ضدّ العلم وأهله ولا سيَّما إذا كان من المصلحين»[11]، ويقول: «أمَّا النُّفوذ الرُّوحي (الدِّيني) في «سوف» فقد كان في أيدي الطُّرق الصُّوفيَّة الَّتي من أهمِّها في أوائل القرن العشرين: القادرية والتِّجانية والرَّحمانيَّة والشَّابية، ...»[12]، «وكان الفرنسيُّون

(8) أي: المتحصِّل على شهادة «التطويع» من الزَّيتونة، وهي شهادة (العالمية).

(9) [جريدة «النجاح»، عدد: (506): 22 ربيع الثاني 1346هـ/ 19 أكتوبر 1927م (ص2)].

(10) [جريدة «النجاح»، عدد: (549)، 4 شعبان 1346هـ/ 27 جانفي 1928م، (ص1)].

(11) مقدمة أبي القاسم سعد الله لكتاب «منظومات في مسائل قرآنية» نظم الشَّيخ محمَّد الطَّاهر التليلي، (ص9).

(12) جريدة «الشروق اليومي» العدد: (950)، الثلاثاء 16 ديسمبر 2003م، (ص5): «فقيد العلم والجزائر الشَّيخ محمَّد الطَّاهر التليلي. أبو القاسم سعد الله».

يحكمونها عن طريق المكتب العربي (بيرو عرب) وباعتبارها من مناطق الجنوب»[13]، فحكّام الجنوب (الصّحراء) هم العسكريُّون، والحكّام في الشّمال مدنيُّون، و(بلدة قمار من الدّائرة العسكريَّة بعمالة قسنطينة)، وناهيك بجوِّ الحكم العسكري القاسي.

وكما قاوم الشّيخ عمّار الانحراف الدِّيني، فإنَّه عمل على إحباط مخطّطات الاستعمار الفرنسي، فإنَّه «لم يخضع لأحكامهم الجائرة وغاياتهم السَّيِّئة في نشر الفساد في [هذه] البلاد الإسلامية، وأخذ الشَّيخ في نشر دعوته سرًّا بين أتباعه لمقاومة الاستعمار، وأخذ بنشرها بين المواطنين الّذين استجابوا لدعوته واتّبعوه، وعندما يشعر الفرنسيُّون بمبادئ الحركة يقبضون على الزُّعماء ويلقونهم في المعتقلات أو يقتلونهم، ولكن كلّ هذه الأحداث لم تضعف عزم شيخنا في نشر العلم والدَّعوة إلى الله»[14].

◆ **الشَّيخ عمَّار من مؤسِّسي جمعية العلماء المسلمين الجزائريِّين:**

تأسَّست جمعية العلماء المسلمين الجزائريِّين: (في 17 ذي الحجة 1349هـ الموافق لـ: 5 مايو 1931م)، وخطّطت لمشروع عظيم منظّم في سبيل تطهير عقيدة الجزائريِّين، وإصلاح ما فسد من دينهم وأخلاقهم، وفي سبيل بعْث العربيَّة من موتها، وإعادة مجدها، ونهضة الجزائريِّين في شتى مناحي الحياة، ودُعي لها جميع علماء القطر الجزائري وفقهائه، وقد حضر الاجتماع التَّأسيسي نحو (73) عالمًا وفقيهًا، ممثّلين لكلِّ جهات الوطن.

وقد شارك الشَّيخ «عمَّار بن لزْعر» في الاجتماع التَّأسيسي لجمعية العلماء سنة 1931م، بنادي التَّرقّي (بالعاصمة) ضمن الوفد الّذي حضر من «سوف» بمعيَّة الشَّيخين: الأمين العمودي، وحمزة بوكوشة[15].

◆ **رئيس شُعبة جمعية العلماء في «قمار»:**

وقفت على ما يفيد أنَّ الشَّيخ عمَّارًا، عيَّنته إدارة جمعية العلماء، رئيسًا لشعبتها في «قمار» [وسيأتي نقله].

◆ **طليعة إصلاح بـ«قمار»:**

تحت هذا العنوان كتب «الطّاهر التليلي» [أحد تلاميذ الشَّيخ عمَّار في «قمار»] عن نهضة القماريين وتأسيسهم لجامعهم الحرّ ومدرستهم القرآنية، بعد نهضتهم الإصلاحية، ثمَّ ذكر أبرز أبطال هذه النَّهضة، وهم: «... **والأستاذ**

(13) المصدر السَّابق.

(14) «أعلام من أرض النبوة» لأنس يعقوب كتبي (2/139 ـ 145).

(15) جريدة «البصائر» السلسلة الرابعة، العدد: 87، (ص12): «العلاَّمة الأديب الشَّيخ حمزة بوكوشة..» إعداد: علي غنايزية.

الكبير الشَّيخ عمَّار بن الأزعر المدرِّس بها... وغير هؤلاء كثير...»، لم تدم فرحة التماريين إلاَّ قليلاً، فنالهم ما نال جميع المصلحين من معاملات الاضطهاد، وقوانين التَّعسُّف[16].

◆ غلق مدرسة «قمار»:

وكان من نتيجة ذلك أن: **أغلقت** الحكومة مكاتب ومدارس للتَّعليم الإسلامي والعربي لمجرَّد انتماء المعلِّمين للجمعيَّة، ومنها: «**مدرسة قمار**».

وكتب الأستاذ الأديب حمزة بوكوشة عن جولته في بعض جهات الوطن، ومنها زيارته لبلدة «قمار» سنة (1932م)، في جريدة «الوزير» التُّونسيَّة، فقال: «..بلدة «قمار» وهي تبعد عن الوادي 18 ميلاً، وبقمار حركة علميَّة لتعليم الشُّبَّان والشُّيَّب، قضى عليها أعداء العلم في مهدها خوفًا من شروق شمس الحقيقة فتكشف ستارهم، وقد استعانوا بسلطة الحكومة في إخفائها، ولكن أنَّى لهم القضاء عليها واقتلاعها من القلوب بعدما أتت هذه الحركة أكلها ضعفين!!... وقطب الحركة الإصلاحية بقمار هو الأستاذ «عمار الأزعر» الَّذي أوذي في اللّه وعزَّزه أفاضل القرية وقاضيها ودائرته وقائدها، وما ضعفوا وما استكانوا»[17].

◆ محاربة التبرُّج في «قمار»:

وممَّا تجنَّد له المصلحون، وعملوا على القضاء عليه: التَّبرُّج وترك الحجاب، «وقد كان السُّفور ببلدة «قمار» منتشرًا بأتمِّ معناه فقاومته هذه الفئة القليلة حتَّى اقتلعته من جذوره: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة: 249]، فلقيت في سبيلها مصادمات عنيفة من صوفيَّة العصر... وقد لمح لها بأبسط ممَّا هنا صاحب كتاب «الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير»»، هذا ما كتبه الأستاذ بوكوشة، وأمَّا صاحب الكتاب الذي أشار إليه، فهو الشَّيخ السعيد الزَّاهري[18].

◆ ما لقيَهُ من اضطهاد ومضايقات:

«لقد لقي الشَّيخ عمَّار الكثير من المتاعب، ومن هذه الحوادث الَّتي وقعت له: أنَّ أهل الباب الشَّرقي كانوا أحبابًا ـ وموالين ـ لأهل البدع

(16) «الشهاب»: جمادى الثانية، 1351هـ/ أكتوبر 1932م، الجزء (10)، المجلد (8) (ص: 531 ـ 533).

(17) جريدة «الوزير» (سنة 1932م)، مقال بعنوان: «جولة من التِّلال إلى الرمال»، ضمن كتاب «رحلات جزائرية» لمحمَّد الصالح الجابري، (ص: 146 ـ147).

(18) «الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير»: (ص: 65 ـ 66)/ ط دار الكتب ـ الجزائر، أوَّل طبعة لهذا الكتاب سنة (1347هـ)، وكانت في أصلها مقالات نشرت في «الفتح» القاهرية.

والخرافات، وكان منزل الشَّيخ في «القج» بالباب الشرقي، فكانوا كلَّما يمرُّ أحدهم بمنزله يرمي الحجارة وسحل فناء بيته ممَّا أدَّى إلى إيذائه، وكانت زوجته وأولاده لا يخرجون إلى وسحل الفناء إلاَّ للضَّرورة، ويمشون تحت الحائط من بيت لآخر خوفًا من الأذى، وفضلاً عن ذلك كانت تتحطم لهم الأواني التي يملؤون فيها الماء وهي التلل، وكان رحمه الله في كلِّ يوم يخرج في حجره الحجارة الَّتي كانوا يرمونها في منزله، ولم يكتفوا بذلك فأطلقوا عليه أذنابهم وشعراءهم يشنونه...»[19]، وتكرَّرت ضدَّه الوشايات والسعايات الكاذبة، الَّتي كادت تزج به في المعتقل والسِّجن، لولا أنَّ الله سلَّمه، وأخطرها: «أنَّه يحرِّض النَّاس على فرنسا».

◆ هجرته إلى البلاد المقدسة:

يقول الدُّكتور أبو القاسم سعد الله القماري: «كان الشَّيخ عمَّار من أنصار الإصلاح ومن مؤسِّسي جمعية العلماء، ولكنَّه وجد مضايقة كبيرة من أنصار الإدارة الفرنسيَّة ومن بعض الطُّرق الصُّوفيَّة المحليَّة فلم يسعه إلاَّ مغادرة «قمار» سنة 1937[20]، «وقال في موضع آخر: «هاجر إلى المدينة سنة 1358هـ ـ 1937م»»[21] فهاجر منها إلى الحجاز حيث عاش في المدينة المنوَّرة مدرِّسًا بالحرم النَّبوي إلى وفاته»، وجاء في كتاب «أعلام من أرض النُّبوَّة» ذكرٌ لهذه الهجرة، قال: «وفي عام 1352هـ ودَّع الشَّيخ عمَّار مسقط رأسه لزيارة البقاع المقدَّسة، وأداء فريضة الحجِّ، وبعد أداء المناسك رجع إلى «قمار»، بعد ذلك قرَّر قراره: أن لا بقاء في ذلك الوسط الجاحد ولا بدَّ من الهجرة، وذلك خوفًا على أهله وذريَّته من النتن، وكان ذلك في عام 1353 هـ حيث هاجر مع جمع غفير إلى البلاد المقدسة، كان خروجه من بلاده بمشهد عظيم اجتمع فيه كثير من النَّاس، فمنهم الفَرِح بخروجه، ومنهم البَاكي، ولمَّا حان وقت رحيله صعد له بعض أعدائه إلى السَّيَّارة وطلبوا منه المسامحة وناشدوه القرابة والرَّحم، فقال لهم: لقد أخرجتمونا وقاومتمونا، الله بيننا وبينكم، نعم المولى ونعم الوكيل، ثمَّ سار الرَّكب...».

◆ ماذا في «قمار» و«سوف» بعد الشَّيخ عمَّار:

يقول سعد الله: «ورغم دور الشَّيخ الأزعر في نشر التَّعليم ومبادئ الإصلاح فإنَّ غياب هذا

(19) «أعلام من أرض النبوة» لأنس يعقوب كتبي (2/139 ـ 145)، ط1/1415هـ. عن موقع «مركز بحوث ودراسات المدينة».

(20) أمَّا الأستاذ الحسن فضلاء، فقد ذكر في كتابه «من أعلام الإصلاح» (2/18)، في ترجمة أحد تلاميذ الشَّيخ عمَّار أنَّ هجرته كانت (في سنة 1935م)، **وهو الأقرب.**

(21) الذي في ترجمة الشَّيخ من كتاب «أعلام من أرض النبوة»: أنَّ الهجرة كانت في (1353هـ)، وهو يوافق سنة (1935م).

الشَّيخ قد ترك فراغًا كبيرًا في «قمار» و«سوف» عمومًا في النَّهضة الإصلاحية، ومن حسن الحظِّ أنَّ وفدًا من العلماء برئاسة الشَّيخ عبد الحميد ابن باديس قد حلَّ في «سوف» سنة 1937م وتجوّل في بلداتها وألقى الدُّروس في مساجدها...»(22)اهـ.

وهل أتاك نبأُ ما أقدمت عليه السُّلطات الفرنسيَّة في «وادي سوف» [18 أفريل 1938]، من التَّرويع الفظيع، ومحاصرة البلد، وتطويقه بالجنود والمدافع، وصُبَّ على أهله العذاب، وذاقوا ما ذاقوا، في أيَّام سوداء حالكة، سببها مكيدة دبِّرت لأهل سوف، بعد نهضتهم العلميَّة الدينية، فأُلصقت بهم تُهَم الثورة والانتفاض(23)، وقد تناقلت جريدة «النَّجاح» - المعادية لجمعية العلماء، والموالية للاستعمار وأذنابه الطُّرقيِّين - هذه الأخبار والشَّائعات، ومن ذلك: «... تفيد أنباء وادي سوف أنَّ المهيجِّين من أتباع جمعيَّة العلماء وزَّعوا أوراقًا مطبوعة وخالية من اسم المطبعة تحث هذه المناشير العامَّة على الجهاد في سبيل الله...» إلخ.

وقد نشرت «البصائر» [العدد: (116): 4 ربيع الأول 1357 هـ/3 ماي 1938 م/ص: 3] مكاتبةً تحت عنوان: «في قمار «سوف» رجال الإصلاح يسامون بالذُّلِّ والهوان»، بإمضاء «جماعة من قمار»، يشكون فيها ما أقدم عليه قائد بلدتهم من اضطهادهم، على «إثر حوادث الاعتقال»، حيث يقولون: «وجد قائد قمار فرصة الانتقام من المصلحين...» إلخ، ويذكر بعض أهالي قمار: أنَّه قد هاجر منها الكثيرون، إلى الحجاز خصوصًا، عقب تلكم الأحداث.

وبعد هذا العرض، نعود لنذكِّر بدور الشَّيخ «عمَّار»، في نهضة «سوف»؛ فهو الَّذي غرس بذور الإصلاح في «قمار» و«سوف» عمومًا، وقد سُلِّط الأذى من بعده على تلاميذه، وحاملي فكرته، ومؤيِّدي دعوته.

◆ بين الشَّيخ عمَّار والشَّيخ مبارك الميلي:

أثناء تولِّي الشَّيخ مبارك لإدارة «البصائر»، تسلَّم رسالةً خاصة في موضوع خاصٍّ، من الشَّيخ عمَّار، قال عنها: «بلغتنا رسالة من الأخ الشَّيخ عمَّار بن الأزعر رئيس شعبة قمار سابقًا **والمدرِّس الآن** [تاريخ نشر هذا الكلام في: 27 ربيع الأول 1357 هـ/ 27 ماي 1938 م] **بالحرم المدني بمدرسة العلوم الشَّرعيَّة**...».

وكان بين الشَّيخ مبارك والأستاذ عبد القدُّوس الأنصاري صاحب مجلَّة «المنهل» الحجازية، ومحرِّرها، والمدرِّس بمدرسة العلوم الشَّرعيَّة، مكاتباتٌ واتِّصالاتٌ، تحوَّلت إلى صداقة، ورابطة

(22) جريدة «الشروق اليومي» العدد: (950)، (ص5).
(23) «الآثار» لابن باديس (5/159 - 160).

متينة، ففي إحدى مكاتباته، المؤرَّخة في: (20 ذي القعدة 1356 هـ الموافق 22 يناير 1938م)، وكان مضمون الرِّسالة، إهداء الشَّيخ الميلي كتابه «الشِّرك ومظاهره» للملك عبد العزيز، ونجليه الملكين: سعود وفيصل، وشيخ الإسلام في عهد الملك عبد العزيز: «الشَّيخ عبد الله ابن حسن آل الشَّيخ»، وكان ذلك باقتراح من الأستاذ أحمد رضا حوحو[24]، يقول الشَّيخ مبارك: «4 ـ وذكرتم عناية الأخوين أحمد رضا **والشَّيخ عمَّار** بالحركة الإسلاحيَّة عامَّة ورسالة الشِّرك خاصَّة، ولا شيء يبعث على الثِّقة بمستقبل النَّهضة العربيَّة الإسلاميَّة مثل الشُّعور بانتشار روح التَّضامن والتَّناصر»، وقال في آخرها: «والسَّلام عليكم وعلى الأخوين **الشَّيخ عمَّار** والسَّيِّد أحمد رضا...»[25].

◆ من تلاميذ الشَّيخ «عمَّار» في المدينة:

1 ـ الشَّيخ حمَّاد الأنصاري (1344هـ ـ 1418هـ):

(24) الذي هاجر إلى المدينة، والتحق بمدرسة العلوم الشَّرعية، سنة 1934م، وتخرَّج منها، وعيِّن أستاذًا بها سنة 1938م، وكان من محرِّري «المنهل» للأنصاري، الَّذي كان من أساتذته في نفس المدرسة، والظَّاهر أنَّه تزامن تدريسه مع التحاق الشَّيخ عمَّار بها. انظر: «أحمد رضا حوحو في الحجاز» للدُّكتور صالح خرفي (ص37).

(25) مجلة «المنهل»، السنة 43، المجلد 38، الجزء الثاني عشر ـ ذو الحجة 1397هـ ـ ديسمبر 1977م (ص 1538).

يقول عن المشايخ الَّذين درَّسوه في المدينة: «أمَّا في المدينة النَّبويَّة لما انتقلت إلى المدينة فقد دخلت في حلقات مشايخ كثيرين...، منهم:... عمَّار المغربي، ...»[26]، ويقول في موضع آخر لسائله: «..وعمَّار المغربي ـ تسمع به؟ عمَّار المغربي يدرسنا في «صحيح البخاري» و«جامع الترمذي»...»[27].

ويقول: «كلُّ هؤلاء كانوا يدرِّسون في الحرم النَّبوي وفي «دار العلوم»، وأنا أحضر دروسهم سواءً في الحرم النَّبوي وفي دار العلوم الشَّرعية...».

2 ـ العلاَّمة المحدِّث: عمر بن محمَّد بن محمَّد بكر الفُلاَّني، الشَّهير بفُلاَّته (1345 هـ ـ 1419هـ) انتقل إلى المدينة المنوَّرة في العام الَّذي يلي ولادته عام 1346هـ، ونشأ فيها وترعرع، ثمَّ دخل دار العلوم الشَّرعية بالمدينة عام 1361 هـ، «وأبرز شيوخه هم:ـ **الشَّيخ عمَّار الجزائري**، درس عليه في المرحلة العالية، في دار العلوم الشَّرعية»، ومنهم: «الشَّيخ المعلِّم محمَّد جاتو النلاني، قرأ عليه أكثر متون المذهب المالكي، وبعض شروحها فقرأ عليه «مختصر خليل» بشرح الدّسوقي، و«أقرب المسالك» بعضها عليه وبعضها على **الشَّيخ عمَّار الجزائري**»[28].

(26) «المجموع...» (2/815).

(27) «المجموع...» (2/808).

(28) ترجمة الشيخ عمر فلاتة، للدكتور عاصم القريوتي، من موقع: «شبكة الإسناد».

◆ بين الشَّيخ عمَّار والشَّيخ الإبراهيمي:

يذكر الأستاذ محمَّد الغسيري في رحلته المشرقيَّة، الَّتي نشرت في «البصائر» في حلقات، عن رحلته «في البلاد العربية السُّعودية: في المدينة المنوَّرة «18»» ـ أثناء مرافقته للأستاذ الإبراهيمي رئيس جمعية العلماء، الَّذي كان حينها في الحجاز سنة (1371 هـ/ 72 هـ ـ حج 1952م) ـ، عن لقاءاتهم بالعلماء والأعيان: «وفي المدينة اجتمعنا بكثير من أخيارها العلماء أمثال الشُّيوخ: عمر بري ـ ومحمد الحافظ ـ و**عمار بن الأزعر** .... وغيرهم من أعلام الرِّجال بالمدينة ومنهم بعض إخواننا المغاربة...»[29]، وفي موضع آخر[30]، يذكر عن زياراتهم في جُدّة، يقول: «اجتمعنا بكثير من الشَّخصيَّات البارزة كـ...، الشَّيخ **عمَّار ابن الأزعر الجزائري الموظَّف بمدارس الحجاز...»**.

◆ بين الشَّيخ عمَّار والشَّيخ العربي التَّبسِّي:

كما اتَّصل الشَّيخ العربي التَّبسِّي، حينما قدم الحجاز (في حج 1954م)، بالشَّيخ عمَّار، وغيره، ففي رسالة بعث بها الشَّيخ العربي إلى بشير كاشة، جاء في آخرها: «...أخي! نُب عليَّ في إبلاغ تحيَّاتي إلى كلِّ من عرفته وعرفني، أيَّام إقامتي بمدينة الرَّسول ﷺ، من رجال العلم والفضل وشرائع المروءات، شيوخ مدرِّسين، وأفاضل جزائريِّين وغيرهم، و**على الأخصِّ أخانا الأستاذ عمَّار بن عبد الله...»**[31].

◆ الشَّيخ عمَّار وثورة التَّحرير الجزائريَّة:

كان للإبراهيمي دور كبير في تحريض الجزائريِّين الَّذين بالمشرق على الجهاد [بالمال] في تحرير الوطن، وقد كان يعمل مع بعض كبار الشَّخصيَّات الجزائريَّة السَّاكنة في المشرق، على توحيد الجهود، والعمل بجدِّيَّة، وعلى جمع كلٍّ التوى.

وكان الواسطة بينه وبين الجزائريِّين في الحجاز، «العلاَّمة السَّلفي» الشَّيخ عمَّار ابن الأزعر ـ إذ كان له دور كبير في تحريكهم ـ، مع غيره من أفاضل الجزائريِّين، وممَّن قاموا بالواجب الجليل الأستاذ بشير كاشة[32]، وقد حفظ لنا رسالة عزيزة، بعث بها الإبراهيمي من (القاهرة في 8 شوال 1374هـ/ 29 ماي 1955م)، يقول فيها:

---

(29) جريدة «البصائر»: السِّلسلة الثانية، العدد: (273)، (ص6).

(30) جريدة «البصائر»: السلسلة الثانية، العدد: (266)، (ص7).

(31) «الشيخ العربي التبسي، إمام المجاهدين...» للأستاذ بشير كاشة (ص81).

(32) (المولود سنة: 1926م)؛ خريج معهد الرياض العلمي، بشهادتي: الثانوية والليسانس "إتمام الدراسة العالية" في الشريعة، سنة (1381هـ)، والذي كان عضوًا في المنظَّمة المدنية لجبهة التَّحرير الوطني، وعاملاً في ممثِّليَّتها بالمملكة العربية السُّعودية منذ إنشائها سنة (1955م)، حتَّى الاستقلال.

«الأخ المحترم **العلاّمة السّلفي سيدي عمّار ابن عبد الله بن الأزعر،** أبقاه الله للخير والرَّحمة، السَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته، بلغتني اليوم رسالة من إخواننا الجزائريِّين، لا أشكُّ في أنَّكم السَّبب الأوَّل في تحرِّيهم لهذه المنقبة الَّتي تضمنتها رسالتهم وهي التَّأثُّر بحالة وطنهم والاهتمام البليغ بما يجري فيه، فلا تسل أيُّها الأخ العزيز بفرحي لهذه الهزَّة الَّتي لا أستغربها في الجزائري... ولقد دمعت عيناي تأثُّرًا بهذه الأريحية وهذه الغيرة، لقد أخذوا رأيي في كيفية أداء واجبهم، وأنا موافق بل محرِّض على هذه الأعمال الجليلة **خصوصًا وهم معترفون بفضلكم، وعاملون بإرشادكم وتوجيهكم، وتحت رئاستكم،** وهل يعقل أن أتسبَّب في حرمان جزائري من الجهاد في تحرير الوطن، **وأعتقد أنَّكم تقرؤون «البصائر» بانتظام،** وترون أنَّها جاهرت بالرَّأي الصَّريح، والتَّوجيه الصَّحيح، ... وأنتم أوَّل من يعلم أنَّه: لولا جمعية العلماء، وجرائدها... لما بقي في الجزائر إسلام ولا عروبة... اشرعوا على بركة الله، ونظموا شئونكم، وشكلوا لجنة تكونون على رأسها، ... كونوا على اتِّصال دائم بي، ... سلامي إلى جميع الإخوان الجزائريِّين، أخوكم المشتاق».

وقال في هامش الرِّسالة: «يبلغكم السَّلام العاطر والأشواق الحارَّة، الأستاذ حمزة بوكوشة[33]، وهو عندي منذ أسبوعين... إذا كانت «البصائر» لا تصلكم بانتظام فأخبروني عزمًا»[34] وعلَّق الأستاذ بشير كاشة على هذه الرِّسالة؛ يذكر أنَّه كان: «ضمن المجموعة الَّتي راسلت الشَّيخ الإبراهيمي رحمه الله المقيم وقتها في القاهرة، والتمست منه أن يوجِّه جوابه لفضيلة الشَّيخ عمَّار بن عبد الله بن الأزعر السُّوفي الجزائري المقيم في المدينة المنوَّرة، المتحصِّل على الجنسيَّة السُّعوديَّة، المدرِّس بالحرم النَّبوي الشَّريف، فخصَّه الشَّيخ الإبراهيمي رحمه الله بهذا الجواب، وسلَّم لي الشَّيخ عمار... هذه الرِّسالة لمتابعة العمل طبقًا لتوجيهات الشَّيخ الإبراهيمي، فاحتفظت بها، وقد جاء وقت نشرها للاستفادة منها تاريخيًّا»[35].

وقد بعثتُ برسالة إلى الأستاذ بشير كاشة، أطلب منه المزيد ممَّا يعرفه عن الشَّيخ عمَّار، فتلقَّيت منه جوابًا مؤرَّخًا في: (8 ربيع الثاني 1428هـ/ 26 أبريل 2007م)، وفيه بعد السَّلام: «وبعد: تسلَّمت خطابكم الكريم، وسررت كثيرًا بما تضمَّنه من معلومات قيِّمة عن شيخنا وأستاذنا الكبير المغفور له ـ إن شاء الله ـ الشَّيخ عمَّار ابن عبد الله الأزعر...، فأنا لا أعرف عنه رحمه الله إلاَّ ما

(33) تقدَّمت الإشارة إلى الصِّلة التي كانت بين الشَّيخ عمَّار، وبوكوشة.

(34) «محمد البشير الإبراهيمي، فارس البيان...» تأليف: بشير كاشة، (ص: 73 ـ 74).

(35) «محمد البشير الإبراهيمي...» (ص74).

أشرتُ إليه في كتيِّب سلسلة «أعلام بلادي - محمَّد البشير الإبراهيمي رحمه الله» صفحة 74... هذا كلُّ ما كنت أعرف عن شيخنا رحمه الله وسجَّلته للتَّاريخ... والدَّليل على أنَّه من رواد الحركة الإصلاحية بالجزائر، ومن أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريِّين، سؤال الإمامين الشَّيخين رئيس جمعية العلماء... سماحة الإمام محمَّد البشير...، ونائبه الإمام الشَّهيد [إن شاء الله] العربي التَّبسِّي - رحمهما الله... - سؤالهما عنه، وعقد اجتماعات معه حول الأوضاع السَّائدة وقتها في الجزائر المحتلَّة من السُّلطات الفرنسيَّة الَّتي تحارب التَّعليم العربي الإسلامي، وتضطهد المعلِّمين والأئمَّة بكلِّ قسوة، ونشاط جمعية العلماء المسلمين الجزائريِّين في نشر التَّعليم العربي الإسلامي بالمدارس والمساجد، وغير ذلك من شؤون البلاد الَّتي تدور أحاديثهم حولها»، هذا ما تفضَّل به الأستاذ - جزاه الله خيرًا -.

◆ **وفاته:**

«توفِّي الشَّيخ عمَّار في 28 من جمادى الأولى 1389هـ...»، على ما ذكره: «دفتردار»، أمَّا صاحب كتاب «أعلام من أرض النُّبوَّة»، فيقول: «توفِّي رحمه الله في الثالث من جمادى الآخرة سنة 1389هـ».

◆ **فائدتان:**

1 - قال الشَّيخ حمَّاد الأنصاري: «عمَّار الجزائري شيخي، قلت له: أريد أن تكتب لي ترجمة لنفسك، **وقد مات وهو يدرِّس في الحرم**، وعمِّر طويلاً، وكان رجلاً عظيمًا تسلَّمت منه ترجمةً لنفسه من يده، وتوفي قبل عشر سنين، قال عبد الأوَّل بن حمَّاد معلِّقًا: قال الوالد هذا الكلام عام 1412هـ»[36]،

قلت: ظهر لي أنَّه يقصد شيخه «عمَّار الأزعر»، وإن كان الشَّيخ إنَّما عاش ثلاثًا وسبعين سنةً، وكانت وفاته عندما قال: الشَّيخ حمَّاد ما قال، قد مرَّ عليها نحوٌ من عشرين سنةً، والله أعلم.

2 - جاء في مقدِّمة الدُّكتور عبد الرَّحمن المزيني - المدير العام لمكتبة الملك عبد العزيز - لـ «فهرس مخطوطات الحديث الشَّريف وعلومه في مكتبة الملك عبد العزيز بالمدينة»، إعداد: عمَّار تمالت (ص7)، وهو يتحدَّث عن أهميَّة المكتبة: «...جمعت فيها مكتبات عدَّة، مثل... مكتبات لبعض الشَّخصيَّات، أمثال: ...الشَّيخ عمَّار بن أحمد الأزعر الهلالي...»، لكن صاحب كتاب «أعلام من أرض النُّبوَّة» قال: «لقد ترك الشَّيخ عمَّار مكتبة قيمة تحتوي على عشرات الكتب والرَّسائل، وترك بعض المخطوطات من تأليفه وتحقيقاته وفتاويه، ولكن هذه المكتبة حرقت ولم يبق منها شيءٌ» اهـ.

أقول: لا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله، لن أتساءل كيف، ومتى حرقت، ومن فعل ذلك؟ ولكن: ماذا بقي منها في «مكتبة الملك عبد العزيز»؟

(36) «المجموع...» (591/2).

فتوى في أمور مُبْتدَعة

أجاب عنها:

الفقيهُ العالمُ: كمالُ الدين أبو العلاء، محمد بن علي بن عبد الواحد الدمشقي

المعروف بـ «ابن الزَّمْلَكاني» (667 ـ 727هـ)

قرأها وقدَّم لها: عمار تمالت

باحث بمركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية بالرياض

الحمد لله وحده، والصَّلاةُ والسَّلامُ على من لا نبيَّ بعده، وعلى آله وصحبه.

أمَّا بعد؛ فإنَّ الله تعالى منح العلماءَ أشرفَ المراتب، وأنزلهم أعلى المنازل، فجعلهم ورثةَ الأنبياء، وإنَّ الأنبياء لم يُوَرِّثوا الدِّينارَ والدِّرهمَ وإنَّما ورَّثوا العلمَ، فكان للعلماء منه أوفرُ الحظِّ والنَّصيب، فهم واسطةُ الخير ـ بعد الأنبياء ـ بين العباد وبين خالقهم، فنجاةُ العباد وفلاحُهم، وقيامُ مصالح دنياهم وأخراهم منوطةٌ باتِّباع علمائهم والاقتداءِ بهم، وفي نبْذ النَّاس لعلمائهم وعدم الاعتداد بهم والالتفاف حولهم أعظمُ الخُسرانِ والضَّلال.

وقد قام العلماءُ برسالتهم في النَّاس أعظمَ قيامٍ وأشرَفه، فسعوا نحو هداية النَّاس، وتعليمِهم أمورَ دينهم، وتربيتهم وتزكيةِ نفوسهم، والقضاءِ بينهم في خصوماتهم، وغير ذلك من مصالح دينهم ودنياهم.

وإنَّ مَثَلَ العلماء في النَّاس، كمَثَلِ الأطبَّاء في ذوي العلل والعاهات، فكما يسعى الأطبَّاءُ للكشف عن أسباب العلل والأمراض وتنحيتها عن أبدان النَّاس ووصف الأدوية النَّاجعة لهم، فكذلك العلماءُ ـ وأَكْرِمْ بهم ـ، فإنَّ من أعظم مهمَّاتهم وأشرفها: السَّعيَ في الكشف عمَّا يخدش في الشَّريعة من بدعٍ ومُخالفات، وتنبيهَ النَّاس إلى ما قد يقعون فيه منها، وتحذيرَهم من طرق الغواية ومزالق الشَّيطان، ومحاربةَ كلِّ مَن قد يتسبَّبُ في إدخال الاعتقادات والأقوال والأعمال المُخالفة لأصول هذه الشَّريعة السمحة؛ ومن ثَمَّ إعادةَ النَّاس إلى ما ارتضاه الله ـ تبارك وتعالى ـ لهم وتركهم عليه نبيُّهم ﷺ، من دين الإسلام وكمال النِّعمة.

وبين يديْك ـ أخي القارئ ـ مثالٌ من أمثلة سعيِ العلماءِ نحوَ علاجِ النَّاس ممَّا قد ينتشرُ بينهم من اعتقاداتٍ وأقوالٍ وأعمالٍ مخالفةٍ لهدي الإسلام،

وهو فتوى وتوجيهٌ لأحد أفذاذهم في أمورٍ مُبْتَدَعَةٍ سُئل عنها، فأجاب جوابًا شافيًا كافيًا مُقنِعًا.

❖ **أما العالمُ المُفتي فهو[1]:**

الشَّيخ القاضي الفقيه: كمالُ الدين أبو المعالي محمَّد بن علي بن عبد الواحد الأنصاري الشَّافعي الزَّمْلَكاني، نسبةً إلى زمْلَكان - أو: زَمْلَكا - وهي قريةٌ بدمشق.

وُلِدَ سنة (667هـ)، ونشأ في طلب العلم، فسمع الحديثَ وغيرَه من علماء بلده، وتفقَّه على تاج الدِّين بن الفِرْكاح، وأخذ العربيَّة عن بدر الدِّين بن مالك، وقرأ بنفسه واجتهد.

قال عنه الذَّهبي: «شيخُنا عالمُ العصر، وكان من بقايا المجتهدين، ومن أذكياء أهل زمانه»، قال: «وكان بصيرًا بالمذهب وأصوله، قويَّ العربيَّة، ذكيًّا فَطِنًا فقيهَ النَّفس، له اليدُ البيضاءُ في النَّظم والنَّثر، وكان يُضربُ بذكائه المثل».

وقال تاجُ الدِّين السُّبكي: «الإمامُ العلاَّمةُ المُناظرُ».

وقال الصَّلاح الصَّفَدي: «كبيرُ الشَّافعيَّة في عصره، والفُضَلاء في دهره».

وقال الحافظ ابن كثير: «انتهتْ إليه رئاسةُ المذهب تدريسًا وإفتاءً ومناظرةً».

درَّسَ بمدارس عدَّة بدمشق وغيرها، ووليَ قضاءَ حلَب.

وصنَّف رسائل وكتبًا، منها: رسالة في الرَّدِّ على شيخ الإسلام ابن تيمية في مسألتيْ الطَّلاق والزِّيارة، وشرح قطعة كبيرة من «منهاج الطَّالبين» للنَّووي، وغير ذلك.

وقال الحافظ ابنُ كثير: «وأمَّا دروسُه في المحافل، فلم أسمعْ أحدًا من النَّاس درَّس أحسنَ منها، ولا أَجْلى من عبارته، وحُسن تقريره، وجَوْدة احترازاته، وصحَّةِ ذهنه، وقوَّة قريحته، وحُسنِ نظمه».

وتخرَّج عليه رحمه الله تلاميذُ عدَّةٌ، من أشهرهم: الحافظُ العلائي.

وكتب في مدحه الأدباء، ونظموا فيه قصائدَ وأشعارًا رائقةً.

توفي رحمه الله بمدينة بُلْبَيْس - بين القاهرة ودمشق - في شهر رمضان المبارك من سنة (727هـ)، ودُفن بالقاهرة، رحمه الله وغفر له.

❖ **وأمَّا فتواه المنشورةُ في هذه المجلَّة الغرَّاء:**

فقد التقطتُها من «مجموعة فتاوى ومسائل مهمَّة» له بلغ تعدادُها (112) مسألة، وتوجدُ

(1) التقطتُ ترجمتَه من: «طبقات السُّبكي» (9/190 - 206)، و«الوافي بالوفيات» (4/151 - 156)، و«البداية والنهاية» (18/286 - 288)، و«الدُّرر الكامنة» (4/74 - 76).

نسختُها الخطيَّة بمكتبة «أيا صوفيا» بإستانبول برقم (1593)، كتبها ناسخُها بخطٍّ نسخيٍّ متقن من خطوط القرن التَّاسع الهجري، وقال في آخرها: «بلغ مقابلةً على نسخة سقيمة بحسب الطاقة».



وهذا نصُّ الفتوى:

❍ وسُئِلَ عن أقوامٍ يقولون أقوالاً مختلفةً، ويزعُمون أنَّ من خالف قولَهم فقد خرج عن ربْقَة الإسلام، وأنَّه من جملة الأنعام، فممَّا يقولون: إنَّ مشايخهم يكون لهم يوم القيامة لواءٌ، وإنَّهم يكونون تحته، وإنَّ مشايخهم يَضربون الإنسانَ ويقتلونه بخاطرهم، فإنَّ الشَّخصَ إذا لم يَقُصَّ له شيخُه شعراتٍ بجبهته يكون مَثَلُه يومَ القيامة كمَثَل الشَّاة الثَّائهة بين الأغنام، وإنَّ السَّماعَ والرَّقصَ عندهم عبادةٌ، والنَّبيُّ ﷺ رقص مع أهل الصُّفَّة، وإنَّ المرأةَ إذا حاضتْ يكون الأكلُ والشُّربُ من يدها حرامًا، وإنَّ الزَّكاةَ تُصرَفُ إلى مشايخهم وإن كانوا أغنياءَ، وإنَّ رؤيةَ الباري عزَّ وجلَّ في الدُّنيا جائزةٌ ممكنةٌ.

فهل لما يقولُه هؤلاء حقيقةٌ من الكتاب العزيز والسُّنَّة النَّبويَّة؟ وإذا أنكرَ عليهم مُنكِرٌ هذا القولَ الَّذي يقولونه والبدعَ الَّتي يرتكبونها: هل يُثابُ على ذلك أم لا؟ وهل يجب على من ولاَّه الله عزَّ وجلَّ شيئًا من أمور المسلمين من النُّوَّاب بالثُّغور المحروسة والقُضاةِ والولاةِ ـ وفَّقهم الله لما يحبُّه ويرضاه ـ مساعدةُ من أنكر عليهم بكلِّ طريق، ورَدْعُ من يقولُ شيئًا ممَّا ذُكر أعلاه، هل يجب عليه ذلك ويُثابُ عليه أم لا؟

✍ أجاب ـ رحمه الله تعالى ـ:

لم يثبُتْ أنَّ لأحدٍ لواءً يومَ القيامة؛ إلاَّ لمحمَّد رسول الله ﷺ، فإنَّه يأتي يومَ القيامة ومعه لواءُ الحمد تحته آدمُ ومن دونه[2].

(2) أخرجه ابنُ حبان (6478) من حديث عبد الله بن سلاَم، وله شواهد يصحُّ بها.

فإنْ كان هؤلاء لهم ألْوِيَةٌ ليست تحت لواء محمَّد، فقد خرجوا عن هذا الحديث وتَبَعِيَّة محمَّد، وإن كانوا من أتباعه ﷺ فهم تحت لوائه، وكفاهم ذلك شَرَفًا وفخرًا إذا ساووا الأنبياء في دخولهم تحت لواء الحمد الَّذي بيد محمَّد ﷺ.

وأمَّا قولُهم: الشَّخصُ يَضْرِبُ الإنسانَ بخاطره فيقتلُه، فهذا إن ذكروه على وجهٍ فلا بأس، قال النَّبيُّ ﷺ: «**إنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقُولُ: مَنْ آذَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ**»[3]، وإذا كان من يُؤذي الوليَّ يحاربُ اللَّهَ فقد هلك، فإنه لا يقومُ أحدٌ بحرب الله، وقد وُجد كثيرٌ من النَّاس آذوا أولياءَ فهَلَكوا، لكن لا يقولُ إنَّ الوليَّ تصرَّفَ بأمره واختياره؛ بل اللَّهُ عزَّ وجلَّ أهلك ذلك الشَّخصَ، ثمَّ هذا لا يكونُ إلاَّ إذا كان ذلك الَّذي وقعتْ به العقوبةُ مستحقًّا لها عند الله، حيث يُعذِّبُه أو يُهلِكُه بسبب وليِّه، فأمَّا ما يَعرضُ من هلاك الشَّخص ويكونُ بينه وبين آخر عداوةٌ أو مُضارَّةٌ بغير استحقاق هلاكِ تلك الجهة ولا عقوبة، فهو اتِّفاقٌ حصل من القدر في ذلك الوقت، فما كلُّ مَن هلك عند غضب آخرَ يكونُ بسببه، وكم من مُدَّعٍ يتبهرجُ بدعواه فيُظهرُ الحقُّ زينةً، تُعرضُ أحوالُه على كتاب الله وسنَّة رسوله وشريعة الإسلام الَّتي هي الصِّراط المستقيم، الَّذي من سلكه نجا، ومن زاغ عنه هلك، قال الله تعالى: ﴿**وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ**﴾.

وأما قصُّ الشَّيخ شعراتِ المريد وأخذُ العُهْدَة عليه أن يكون تبَعًا له ومنسوبًا إليه، فأمرٌ مُبْتَدَعٌ لم يأت به كتابٌ ولا سنَّةٌ، والمشروعُ: الحَلْقُ والتَّقصيرُ في الحجِّ، فأمَّا التَّوبةُ أو الإرادةُ فلم يُشرَعْ حلقٌ ولا قصٌّ، وإنَّما هذه عوائدُ وبدعٌ جمعتْ عليها طوائفُ هربوا من اتِّباع الكتاب والسُّنَّة والسُّلوك على سبيل الرسول ﷺ، فاتَّخذوا هذه العوائدَ والشِّعارَ، وجمعوا عليهم الأهواءَ بذلك كلِّه، والخيرُ كلُّه في كتاب الله وسنَّة رسوله.

وأمَّا قولهم: إنَّ من لم يقصَّ الشَّيخُ شعراتٍ بجبهته يكونُ كالشَّاة التَّائهة بين الأغنام، فليت شعري! أيقولون إنَّه يخرج بذلك عن تبعيَّة محمَّد ﷺ إذا كان مسلمًا؟ إن قالوا ذلك فقد مرقوا من الدِّين، وإن قالوا: بل هو على تبعيَّة الرَّسول ﷺ كفاه ذلك الشِّعارُ وتلك السِّمةُ الَّتي ائتمَّ بها، فعُرفَ بين الخلائق يوم القيامة بأنَّه

---

(3) الحديث بهذا اللَّفظ عند أبي نعيم في «حلية الأولياء» (4/1)، وهو عند البخاري (6502) وغيره بلفظ: «**مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا**».

من أمَّة هذا النَّبيِّ ﷺ العظيم الَّذي هم خيرُ أمَّة أُخرجتْ للنَّاس، الَّذين هم الوسطُ الشُّهداءُ على النَّاس، الَّذين يأتون يومَ القيامة غُرًّا مُحَجَّلين من آثار الوضوء[4]، حتَّى إنَّ عصاتَهم إذا دخلوا النَّارَ بذنوبهم ليَطَّهَّروا منها يُعرَفون في النَّار بسيماهم وهو أثرُ السُّجود، قد حرَّمَ الله على النَّار أن تأكلَ أثرَ السُّجود[5]، فأين سيما مشايخِهم في ذلك الوقت وقصِّهم شعراتِ الجبين؟!

وأمَّا قولُهم: إنَّ السَّماعَ والرَّقصَ عبادةٌ، فهذا مُكابَرَةٌ في دين الإسلام، لم يقلْ أحدٌ من المسلمين إنَّ السَّماعَ والرَّقصَ عبادةٌ، وقد أكمل الله الدِّينَ في حياة نبيِّه ﷺ، ولم يجعلْ في عبادته رقصًا ولا سماعًا، وهذا القولُ خارقٌ لإجماع الأمَّة.

وفي السَّماع ما أجمعت الأمَّةُ على تحريمه، وفيه نوعٌ بين الأمَّة خلافٌ في تحريمه، والقائلون بالتَّحريم أكثرُ، والقائلون بالتَّحليل يُحِلُّونه بشروط، مع أنَّ تعاطيَه خلافُ الأَوْلى، والانهماكَ عليه يُسقِطُ العدالةَ.

وأمَّا الرَّقصُ فلا أصلَ له، ومُتَعاطيه خارمٌ لمروءته، والمُدمِنُ عليه مردودُ الشَّهادة، وقولهم:

(4) ثبت الحديث في هذا عند البخاري (136)، ومسلم (246) وغيرهما.

(5) ثبت الحديث في هذا عند البخاري (773)، ومسلم (182) وغيرهما.

إنَّ النَّبيَّ ﷺ رقص مع أهل الصُّفَّة افتراءٌ على الله ورسوله قد نزَّه اللهُ نبيَّه من ذلك، وكفى بقائل هذا القول أنَّه داخلٌ في قول النَّبيِّ ﷺ: «**مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**»[6]، وإن استحلَّ هذا الكذبَ على رسول الله ﷺ فقد كفرَ، وإن كان جاهلًا عُلِّمَ، فإن أصرَّ بعدَ التَّعليم أُدِّبَ وزُجِرَ؛ وهذا قولُ من لم يعرفْ نبيَّه ﷺ ولا قدْرَه، قال النَّبيُّ ﷺ: «**لَسْتُ مِنْ دَدٍ وَلاَ دَدٌ مِنِّي**»[7]، يعني به اللَّعبَ واللَّهوَ.

وقولُهم: إنَّ المرأةَ إذا حاضتْ يكونُ الأكلُ والشُّربُ من يدها حرامًا، شُعبةٌ يهوديَّةٌ؛ فإنَّ هذا من قول اليهود، وبيَّنَ النَّبيُّ ﷺ أنَّ هذا الإصرَ رُفِعَ عن هذه الأمَّة[8]، وقال لعائشة رضي الله عنها: «**إِنَّ حَيْضَتَكِ لَيْسَتْ فِي يَدِكِ**»[9]، وكان يأكلُ مع نسائه ويشربُ وهنَّ في المحيض ويُضاجِعُهُنَّ[10]، لكنْ جماعُ الحائض مُحَرَّمٌ حتَّى تغتسلَ بعد الطُّهْر.

(6) الحديث في «صحيح البخاري» (110) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(7) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (785)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (413)، وغيرهما من حديث أنس رضي الله عنه، وقد ضعَّفه الشيخُ الألباني في «السِّلسلة الضَّعيفة» (2453).

(8) هو معنى الحديث الوارد في سبب نزول آية الحيض، وهو عند مسلم (302) وغيره.

(9) أخرجه مسلم (298) وغيره.

(10) في هذا المعنى أحاديث في «صحيح مسلم» (295) وغيره.

وقولُهم: إنَّ الزَّكاةَ لا تُصرفُ إلاَّ إلى مشايخهم وإن كانوا أغنياءَ، كذبٌ؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ﴾، وقال رسولُ الله ﷺ: «**وأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً فِي أَمْوَالِهِمْ تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ**»[11]، وقال: «**لاَ تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيٍّ وَلَا لِذِي مِرَّةٍ سوِيٍّ**»[12]؛ فقولُ هؤلاء مُصادمٌ لكتاب الله ولقول رسول الله ﷺ.

وأمَّا قولُهم: إنَّ رؤيةَ الله جائزةٌ في الدُّنيا، فإنْ أرادوا أنَّ العقلَ لا يُحيلُ ذلك فصحيحٌ رؤيةُ الله ممكنةٌ في الدُّنيا، والصَّحيحُ من قوليْ أهل السُّنَّة أنَّ النَّبيَّ ﷺ رأى الله في إسرائه، ولم يحصلْ ذلك لأحدٍ غيرِه، وثبت المنعُ من ذلك لغيره شرعًا، قال النَّبيُّ ﷺ: «**وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ لَنْ تَرَوْا رَبَّكُمْ فِي حَيَاتِكُم الدُّنْيَا**»[13]، فلا يُرى في الدُّنيا، ومن زعم أنَّه رأى اللَّهَ يقظةً في الدُّنيا بعينه فقد كذبَ على الله، وإن كان من أهل الصّدقة والصحَّة، فقد يُخَيَّلُ له خيالٌ، أو رأى شيئًا فلبَّس عليه، وأمَّا في الآخرة فإنَّ المؤمنين يرونَ اللَّهَ عزَّ وجلَّ بأبصارهم، لا يُضامُّون في رؤيته، كما يُرى القمرُ ليلةَ البدر، ثبت بذلك الأحاديثُ الصحيحةُ[14]، ودلَّ عليه القرآنُ العظيمُ[15].

وبالجملة؛ هؤلاء المسؤولُ عنهم مُبْتَدِعون ضالُّون، وقد يكفُرون ببعض ذلك بطريق التكفُّر[16].

والمُنكِرُ عليهم مُثابٌ مأجورٌ عند الله إذا قصدَ بإنكاره وجهَ الله، مُصيبٌ في إنكاره.

ويجبُ على من علِمَ حالَهم أن يُنكِرَ عليهم.

ويجبُ على وُلاة أمور الإسلام وقُضاتهم وعلمائهم وعامَّةِ المسلمين إذا علموا حالَ هؤلاء أن يُنكروه، ويأخذوا على أيديهم ويمنعوهم منه، ومن تقاعد عن ذلك أَثِمَ.

ويُثابُ المُنكِرُ والسَّاعي في إزالة هذه البدع وقمعِها ورَدْعِ أهلِها، وكُلُّ مُحْدَثَةٍ بدعةٌ، وكُلُّ مُحْدَثَةٍ[17] ضلالةٌ، والله أعلم.

---

(11) أخرجه البخاري (1331)، ومسلم (19) ضمن حديث بعث النبي ﷺ لمعاذ رضي الله عنه إلى اليمن.

(12) الحديث ورد عن عدد من الصحابة، منهم عبد الله ابن عمرو عند الإمام أحمد (6530)، وأبي داود (1634) وغيرهما، وقد استقصى تخريجه بشواهده الشيخ الألباني في «إرواء الغليل» (3/381 ـ 385) وصحَّحه.

(13) وجدته بلفظ: «**إِنَّكُمْ لَنْ تَرَوْا رَبَّكُمْ حَتَّى تَمُوتُوا**»، أخرجه الإمام أحمد (22864)، وأبو داود (4320) وغيرهما، من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه، وله شواهد.

(14) بل الأحاديث الواردة في ذلك متواترةٌ، بعضُها في «الصحيحين»: البخاري ومسلم.

(15) كقوله تعالى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ٢٣﴾ [القيامة: 22 ـ 23].

(16) كذا بالأصل.

(17) كذا في النسخة، والوارد: «وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ».



كنوز مخبوءة في تراثنا الجزائري

تقديم وتعليق: أبي عبد الرحمن محمود

الحمد لله، وسلام على عباده الذين اصطفى.

أما بعد، فأضع بين يدي قارئ «الإصلاح» كنزا ثمينا من كنوزنا المخفية، وأثرا جليلا من آثارنا المنسية، ودرة نادرة من تراثنا العلمي المطوية، كتب الله لها الظهور بعد الخفاء، والعثور بعد الضياع! والنشر بعد أن لم تكن شيئا مذكورا!

فلله الحمد ربّ السموات ورب الأرض رب العالمين.

ولا أفشي سرا إذا علم القارئ أن هذا الأثر المخطوط - على اختصاره - فُتيا لعالم جليل من علماء الجزائر، وفتيه من فتهائها، ورائد من رواد الإصلاح في هذا الزمان؛ ضمنها - مع بيانه للأحكام الشرعية المتعلقة بالمسألة - أصولا نافعة، وقواعد جامعة، وفوائد جمة بارعة، لا يستغني عنها المتفقه الحريص على توحيد الله في العبادة ورسوله ﷺ في المتابعة.

فخذها - أيها القارئ الكريم - هدية هادية، تزدك هدى أو تردك عن ردى.

نص الفُتيا

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين.

أما بعد: فقد قامت الأدلة القطعية من صرائح الكتاب وصحائح السنة على أن أعظم مظهر للعبودية لله هو عبادته.

وقامت الأدلة منهما أيضا على أن الله تعالى لا يُعبد إلا بما شرعه في كتابه أو على لسان

نبيه ﷺ مبيِّنا بفعله.

وعلى أن هيئات العبادات العملية وكيفيتها داخلة في معنى العبادة مشروطة في التعبد بها، فلا يُعبد الله إلا بما شرع على الوجه الذي شرع.

ولما كانت الصلاة هي عماد الدين وركنه الركين لاشتراك القلب واللسان والجوارح في أدائها وتحقيق فعلها؛ وجب أن يكون حظها مما ذكر أوفر، ونصيبها من تحري المشروع أكثر.

وسنتها المشروعة متواترة لا يرتاب فيها مسلم.

وما يسبق المفروض منها أو يلحقه من النوافل مبيَّنٌ في السنة الصحيحة، ثابت من فعله ﷺ وفعل أصحابه، لا يجهله إلا جاهل بالسنة.

وتلك السوابق واللواحق عبارة عن ركعات محدودات تسمى عند الفقهاء رواتب.

وكل ما زاد على ذلك فهو من إحداث المحدثين وابتداع المبتدعين، وكله مردود على فاعله وعلى القائل به؛ لأن صاحب الشريعة يقول: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ**»[1]، ولأن الله تعالى يقول: ﴿**ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ**﴾ [المائدة: 3]، ولأن مالكا رضي الله عنه يقول فيما يتعلق بهذه الآية: «ما لم يكن يومئذ دينا فليس اليوم بدين».

ولبُّ اللباب فيما أصّلناه من هذه الأصول أنه يجب على كل مسلم أن يلتزم في العبادات العملية كالصلاة كل ما ثبت عن رسول الله ﷺ من قول وفعل وهيئة وفواتح وخواتم، وأن لا يزيد شيئا على ذلك، لا قبل العبادة، ولا بعدها، ولا معها؛ لأن ذلك كله ابتداع وزيادة في الدين، ولو كان فيها خير لكان النبي ﷺ أسبق إلى فعلها والعمل بها ليسنَّها لأمته، وأن لا يقلد الجاهلين في ذلك ولو اجتمعوا عليه، فإن اجتماع الجهال والعامة على شيء من هذا القبيل لا حجة فيه بل الحجة لله ورسوله، والبدعة في الدين لا تصير سنة بإجماع الناس عليها.

ومن هذا القبيل ما أحدثه الناس وسكت عنه العلماء الجاهلون بالسنة فلم ينكروه: من التزام أذكار معيَّنة يجتمعون عليها بعد الصلوات، وقبل صلاة الجمعة على الخصوص، ويرفعون أصواتهم بها، فكلُّ ذلك من البدع المحدثة المنكرة التي تدخل في عموم قوله ﷺ: «**وَكُلّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ**»[2]، واجتماع الناس عليها

---

(1) أخرجه البخاري (2697) ومسلم (1718) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(2) قطعة من حديث صحيح: أخرجه مسلم (867) عن جابر، وأبو داود (4594) عن العرباض بن سارية.

وانظر الطبعة المحققة من «تفسير ابن باديس» (38 و180) بقلمي.

قرونا لا يُخرجها من معنى البدعة، وسكوت العلماء عن إنكارها لا يُدخلها في باب السنة.

وقد كان ﷺ يصلي بأصحابه الجمعة منذ شُرعت إلى أن لحق بربه، فلم يكن يفعل شيئا من ذلك، ولنا فيه الأسوة الحسنة، ولا فعله واحد من أصحابه، ولا من أهل القرون الثلاثة الفاضلة، ولا واحد من حفاظ السنة، والمحافظين عليها في جميع القرون إلى يومنا هذا، وذكر الله مشروع ولكنه على هذه الكيفية في هذا الوقت غير مشروع.

كذلك كان يصلي بأصحابه الصلوات الخمس ولم يفعل شيئا من هذه الأعمال التي يعملها الناس اليوم من اجتماعهم للذكر ورفع أصواتهم به بعد الصلوات، فهو بدعة زائدة في الدين.

والمأثور عن الصحابة ومن بعدهم من السلف الصالح أنهم كانوا يهجّرون لصلاة الجمعة؛ فيذكرون الله في أنفسهم، أو سرا بألسنتهم، أو يقرءون القرآن كذلك، ولا يرفعون أصواتهم بشيء من ذلك حتى لا يشوّشوا على مصل لتحية المسجد أو متنفل، تشهد بذلك الآثار الثابتة المأثورة عنهم ولا يماري في ذلك إلا جاهل بسيرتهم وسيرة قدوتهم وإمامهم ﷺ.

وأما تلاوة القرآن بالاجتماع كما يفعل الناس اليوم فقد كرهها مالك؛ لأنها ليست من فعل السلف، ولأنها تضيع على القارئ تدبر القرآن، وهو الحكمة العليا من نزول القرآن، والثمرة المقصودة من تلاوته.

ومن فعل ذلك تعبدا بتلاوة القرآن فقد خالف السنة في الكيفية، ومن فعله لإتقان الحنظ فقد راعى المصلحة دون العبادة.

كتبه

«..........................»

بتاريخ فاتح ذي الحجة الحرام

عام 1363هـ

* * *

والآن - وقد وقفتَ - أيُّها القارئ - على نصِّ الفُتيا بحروفها، حُقَّ لك أن تتساءل معي:

1 - ما الفوائد العلميَّة المستخلَصَة منها؟

2 - ومن محرِّرها من علمائنا العاملين؟

والإجابة عليها ترقَّبْها في حلقة قادمة - إن شاء الله - والله وليُّ التَّوفيق.

الانتصار للصحابة الأبرار

عبد الكريم لخذاري
إمام أستاذ بقسنطينة

تقاسيم وجهك يا لبنان قد ظهرت ... وَنَصرُكِ الرفض من شام ومن يمن

فكيف يا أمة الإسلام غَضْبَتكمْ ... لمن يسب رسول الله في العلن

ومن يطاعن عرض المصطفى جَهَرًا ... وهل هناك لمثل العرض من ثمن

ومن يسب أبا بكر و ثمرته ... وثمره عائش الصديق باللعن

وكيف تلعن أمًّا للعلى رفعت ... وزانها الصادق المصدوق بالمنن

هي الفقيه حديث المصطفى حفظت ... وستر أحمد صانته من المُجَنِ

هي المسابق سبقا ليس يدركه ... وعلم عروة يروي شامة الزمن

وكيف تطعن في صِدِّيق أمتنا ... وصوت صاحبه وقر إلى الأذن

(دعوا صاحبي) بل سبوا صاحبه ... وأغلقوا خوخة الصديق بالكفن

بل كفروه وَهَدْمُ الدين همهم ... وبايعوا أمة التوحيد بالفتن

يا من يسب أبا حفص وقرَّتَه ... وابنه الحافظ المجنون بالسنن

غاب الرجال وذاق الدين غيبهم ... وليس يفرح إلا عابد الوثن

كفى بفضلك يا فاروق مدحكم ... من النبي فأنت الفحل في المحن

أذلة الناس يا أحثال أنفسهم ... أمثلكم يبلغ العثمان ذوالمؤن

هو الذي قد سقى الإسلام من عطش ... وبئر رومة ينسي لذة اللبن

منه الملائك تستحيي وبقعته ... قد اشتراها وباع الترب بالعدن

إذا تكلم جيش العسرة انصرفوا ... كما المنافق في ذل وفي وَهَنِ



يا ثالث العشرة المشهود جنتهم ... أكرم بصهر رعى النورين في السكن

يا مِنَّةً حازها العثمان دونهم ... هي الشهادة في فضل وفي دِيَنِ

أبا تراب عصي الدمع مذ مكروا ... وليس يَقْبَلُ سب الصحب من نتن

هو الشقيق لهم حبوا وإن كرهوا ... هم الرجال رعاه الدين والوطن

أين السيوف التي حلت محلهم ... مذ غادروا الدار صار الدين في حزن

أين الفتوح التي زانت معاوية ... بل صان دينا وعلاه بذي المُدُنِ

يَسُفُّ ملاً لأهل الكفر أجمعهم ... والترب يركض والرايات بالسفن

هذي الزلازل لا تبقي ولا تذر ... تُذِلُّ قيصر تكوي قلب ذي يَزِنِ

سل الفوارس عن كسرى تُنَبِّؤُكُمْ ... بأن أسد الشرى أسمى من الدرن

أبا عبيدة يا هاما لأمتنا ... هل محنة الدين إلا راحة البدن

يا من يسب أبا هرٍّ ويطعنه ... طعنت نفسك والأخيار لم تَهُنِ

روى الحديث بآلاف مؤلفة ... والجوع يقتله واللبس من خشن

هو الذي ترك الدنيا بأجمعها ... قد نلتموها مخانيث من السمن

هذي القصور لكم في كل ناحية ... والأكل والشرب كالأنعام والضَّأَنِ

أنتم زناة وباسم الدين عهركم ... والسلب والنهب باسم الخمس بالجُفُنِ

والعين تبكي على فرج لقاصرة ... كذا الرضيعة للسادات في حُضُنِ

سادات إبليس عاشوراء يومكم ... ويوم خُمٍّ فروج الناس لم تُصَنِ

وفي العراق محاريب لنا انهدمت ... وسنة المصطفى المختار في شَجِنِ

كم أحرقوا عالما والعين ناظرة ... والقيدُ يقتله والرمح في طعن

وزوجه الحرة المستورة أُنْتُهِكَتْ ... باسم السبية أين الرَّأْفُ بالظُّعَنِ

داسوا الكتاب وأحيوا عهد قومهم ... في يوم بغداد والتاتار في الرُّكُنِ

في كل ركن لهم قتل وغائلة ... إن الروافض شر الشر والخَوَنِ

هم الخيانة تمشي اليوم في صور ... على العمائم والجُبَّات واللِّحَنِ

في كل لحن لهم قول وتسمعه ... وفي جسومهمُ بسط من الحُسُنِ

عليهمُ لعناتُ الله دائمةً ... وصحبُ أحمدَ حقا سادةُ الزمنِ

قرة العينين في أحكام بر الوالدين

«الجزء الثاني»

أمينة حداد
ليسانس في الشريعة الإسلامية

إنَّ الحديث عن برِّ الوالدين لا يكون صحيحًا في الأذهان، تامَّ البيان، مستوفي الأركان إلاَّ ببيان معنى العقوق، فإنَّهما خُلُقان متناقضان يدفع أحدهما الآخر كما يدفع اللَّيل النَّهار، والماءُ النَّارَ.

فالعقوق كبيرة بلا خلاف، فعن عبد الرَّحمن ابن أبي بكرة، عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ؟**» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «**الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ**»، وجلس متكئاً، «**أَلاَ وَقَوْلُ الزُّورِ**»[1].

قال المناوي: «فالله هو الخالق المصوِّر حقيقة، وهما (أي الوالدان) المنشآن له مجازًا، فلذلك لا يقدر أحد أن يقوم بحقِّ أبويه، فإنَّ من كان سبب نشأتك كيف تفي بحقِّه أو تفي بشكره، ولذلك قرن عقوقهما بالشرك به، كما قرن طاعتهما بطاعته، ولما كان الشرك لا يغفر عظم قدر العقوق لاقترانه به، فمن برَّ والديه فقد برَّ ربَّه، ومن عقَّهما فقد عقَّه»[2].

ومنه يفهم معنى قوله ﷺ: «**رِضَا الرَّبِّ فِي رِضَا الوَالِدِ، وَسَخَطُ الرَّبِّ فِي سَخَطِ الوَالِدِ**»[3].

بل إنَّه ﷺ جعل تسبُّب الولد في أذيَّتهما كمباشرته لذلك، قال ﷺ: «**مِنَ الكَبَائِرِ شَتْمُ الرَّجُلِ وَالِدَيهِ**، قالوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَهَلْ يَشْتُمُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ؛ يَسُبُّ أَبَا الرَّجُلِ، **فَيَسُبُّ أَبَاه، وَيَسُبُّ أُمَّهُ، فَيَسُبُّ أُمَّهُ**»[4].

فإذا قصدت معرفة حقيقة العقوق وحدِّه، فاعلم أنَّ هذه اللَّفظة مأخوذة في اللُّغة من القطع، والشّقِّ، يقال: عقَّ والده، إذا قطعه ولم

(1) رواه البخاري (2654).

(2) «فيض القدير» (2/24).

(3) أخرجه الترمذي (2020)، والبخاري في «الأدب المفرد» (2/2)، وقال الشيخ الألباني: «حسن موقوفًا، وصحَّ مرفوعًا»، انظر: «الصحيحة» (515).

(4) رواه البخاري (5973)، ومسلم (90).

يصل رحمه، هذا قول أهل اللُّغة.

أمَّا حقيقة العقوق المحرَّم شرعًا فقلَّ من ضبطه، وقد قال ابن عبد السَّلام: «لم أقف في عقوق الوالدين وفيما يختصَّان به من الحقوق على ضابط أعتمده، فإنَّه لا يجب طاعتهما في كلِّ ما يأمران به وينهيان عنه باتِّفاق العلماء».

وقد حدَّه أبو عمرو بن الصَّلاح بقوله: «العقوق المحرَّم كلُّ فعلٍ يتأذَّى به الوالد تأذِّيًا ليس بالهيِّن مع كونه ليس من الأفعال الواجبة.

وربَّما قيل: طاعة الوالدين واجبة في كلِّ ما ليس بمعصية، ومخالفة أمرهما في ذلك عقوق».

ويقصد بقوله: «ليس من الأفعال الواجبة»: كراهية بعض الآباء والأمَّهات لقيام أبنائهم بما يجب عليهم من صلاة وصيام ونحوهما وتأذيهما بذلك، فإنَّ مخالفتهما في مثل هذا لا تدخل في العقوق، بل هي مطلوبة، مأمور بها شرعًا[5].

وقد زيد في حدِّه وضبطه أن يؤذي الولد أحد والديه بما لو فعله مع غيرهما كان محرَّمًا من جملة الصغائر، فينتقل بالنِّسبة إلى أحد الوالدين إلى الكبائر[6].

على أنَّه قد يُتوَهَّم من بعض ما قيل أنَّ كلَّ فعل مخالف لرغبة أحد الوالدين يعدُّ عقوقًا، ومن طالع المسائل، وسَبَر الدّلائل، وما انتهى إليه العلماء المعاصرون والأوائل، وجد في ذلك حدًّا زائدًا وبيانًا مفيدًا، يزيل الوهم ويصوِّب الفهم.

قال ابن تيميَّة: «فما أمراه ائتمر، وما نهياه انتهى، وهذا فيما فيه منفعة لهما، ولا ضرر عليه فيه ظاهر (أي على الولد)... فأمَّا ما كان يضرُّه طاعتهما فيه، لم تجب طاعتهما فيه، لكن إن شقَّ عليه ولم يضرَّه وجب»[7].

وقال ابن عثيمين: «وما فيه منفعة للإنسان ولا ضرر على الأبوين فيه، فإنَّه لا طاعة للوالدين فيه منعًا أو إذنًا؛ لأنَّه ليس فيه ضرر وفيه مصلحة، وأيُّ والد يمنع ولده من شيء فيه مصلحة له، وليس على الولد فيه ضرر فإنَّه مخطئ فيه وقاطع للرَّحم»[8].

وبإعمال مجموع هذه الضوابط والحدود، يُتوسَّل إلى معرفة الحكم في سُوَر عديدة اضطرب فيها الجواب وغاب عنها الصَّواب، ومن جملة ذلك:

أوَّلاً ـ إلزامهما الولد بنكاح من لا يريد:

قال بعض العلماء: «إنَّه ليس لأحد الأبوين أن يلزم الولد بنكاح من لا يريد، وإذا امتنع لا يكون عاقًّا، وإذا لم يكن لأحد أن يلزمه بأكل ما يَنْفُر عنه مع قدرته على أكل ما لا

(5) «شرح مسلم» (2/ 448).

(6) «الموسوعة الفقهية»: مادة (بر الوالدين).

(7) «غذاء الألباب» (1/294)، وانظر: «الفتاوى الكبرى» (5/381).

(8) «الشرح الممتع» (8/13).

تشتهيه نفسه، كان النِّكاح كذلك وأولى، فإنَّ أكل المكروه مرارة ساعة، وعشرة المكروه من الزَّوجين تؤذي صاحبه ولا يمكنه فراقه».

وقد روى أبو داود (2096) عن ابن عبَّاس: «أنَّ جارية بكرًا أتت النَّبيَّ ﷺ فذكرت أنَّ أباها زوَّجها وهي كارهة، فخيَّرها النَّبيُّ ﷺ».

ثانيًا ـ إلزامهما الولد بالطَّلاق:

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كانت تحتي امرأة أحبُّها وكان أبي يكرهها، فأمرني أن أطلِّقها فذكرت ذلك للنَّبيِّ ﷺ، فقال: «**يَا عَبْدَ اللهِ ابْنَ عُمَرَ طَلِّقْ امْرَأَتَكَ**»[9].

وعن أبي الدَّرداء أنَّ رجلاً أتاه فقال: إنَّ لي امرأة وإنَّ أمِّي تأمرني بطلاقها، قال أبو الدَّرداء: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**الوَالِدُ أَوْسَطُ أَبْوَابِ الجَنَّةِ**» فَإِنْ شِئْتَ فَأَضِعْ ذَلِكَ البَاب أَوْ احْفَظْهُ[10].

غير أنَّ الحكم وإن كان في هذه النُّصوص صريحًا؛ فإنَّه يحتاج إلى دقَّة استدلال، وتحقيق مناط.

قال رجل لأحمد رحمه الله: «إنَّ أبي يأمرني أن أطلِّق امرأتي، قال: لا تطلِّقها، قال: أليس عمر رضي الله عنه أمر ابنه عبد الله أن يطلِّق امرأته؟ قال: حتَّى يكون أبوك مثل عمر»، يعني لا تطلِّقها بأمره حتَّى يصير مثل عمر في تحرِّيه الحقَّ والعدل وعدم اتِّباع هواه في مثل هذا الأمر[11].

وسئل شيخ الإسلام عن امرأة وزوجها متَّفقين وأمُّها تريد الفرقة، فلم تطاوعها البنت فهل عليها إثمٌ في دعاء أمِّها عليها؟

فأجاب رحمه الله: «إذا تزوَّجت لم يجب عليها أن تطيع أباها ولا أمَّها في فِراق زوجها ولا زيارتهم، ولا يجوز في نحو ذلك، بل طاعة زوجها عليها إذا لم يأمرها بمعصية الله أحقُّ من طاعة أبويها «**وَأيمَا امْرَأَةٍ مَاتَتْ وَزَوْجُهَا رَاضٍ عَنْهَا دَخَلَتِ الجَنَّةَ**»[12].

وإذا كانت الأمُّ تريد التَّشريق بينها وبين زوجها فهي من جنس هاروت وماروت لا طاعة لها في ذلك، ولو دعت عليها، اللَّهمَّ إلاَّ أن يكونا مجتمعين على معصية أو يكون أمره للبنت بمعصية الله والأمُّ تأمرها بطاعة الله ورسوله الواجبة على كلِّ مسلم»[13].

ثالثًا ـ طلب إذنهما للجهاد:

عن عبد الله بن عمرو قال: أقبل رجل إلى نبيِّ الله ﷺ فقال: أبايعك على الهجرة والجهاد أبتغي الأجر من الله، قال: «**هَلْ مِنْ وَالِدَيْكَ أَحَدٌ حَيٌّ؟**» قال: نعم، بل كلاهما، قال: «**فَتَبْتَغِي**

(9) رواه الترمذي (1189).

(10) رواه الترمذي (1900)، وابن ماجه (3663)، وانظر: «الصحيحة» (914).

(11) «الموسوعة الفقهية» (72/8).

(12) أخرجه ابن ماجه (1854)، والترمذي (1161)، انظر: «الضعيفة» (1426).

(13) «المجموع» (33/66 ـ 67).

الأَجْرَ مِنَ اللَّهِ؟» قال: نعم، قال: «**فَارْجِعْ إِلَى وَالِدَيْكَ فَأَحْسِنْ صُحْبَتَهُمَا**»[14].

قال النَّووي: «فيه حجَّة لما قاله العلماء أنَّه لا يجوز الجهاد إلاَّ بإذنهما إذا كانا مسلمين، وبإذن المسلم منهما... هذا كلُّه ما لم يحضر الصَّفَّ ويتعيَّن القتال، وإلاَّ فحينئذ يجوز بغير إذن»[15].

بل إنَّه ﷺ اعتبر القيام على مصالحهما جهادًا، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينما نحن جلوس مع رسول الله إذ طلع علينا شابٌّ، فقلنا: لو أنَّ هذا الشاب جعل شبابه ونشاطه وقوّته في سبيل الله؟! فسمع مقالتنا رسول الله ﷺ فقال: «**وَمَا سَبِيلُ اللَّهِ إِلاَّ مَنْ قُتِلَ؟! مَنْ سَعَى عَلَى وَالِدَيْهِ فَفِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمَنْ سَعَى عَلَى عِيَالِهِ فَفِي سَبِيلِ اللَّهِ**» الحديث[16].

رابعًا ـ طلب إذنهما لطلب العلم:

وهذا فيما يخصُّ العلوم الواجبة أو المستحبَّة شرعًا، وأمَّا المحرَّمة فلا إذن للشَّارع فيها، ولذلك لا يعتبر فيها رضا الوالدين وإن أَذِنَا.

فإذا كان العلم من قبيل المطلوب شرعًا؛ فإنَّ الفقهاء قد اتَّفقوا من حيث الجملة على عدم مشروعيَّة الخروج لطلبه إذا كان الوالدان أو أحدهما مُعْسِرَيْنِ، وكانت نفقتهما على الولد، أو كان يخاف الضَّيْعة عليهما بخروجه.

وإذا كان الولد يخاف على نفسه الهلاك بسبب خروجه لطلب العلم لم يجز له لحصول الضَّرر لهما بذلك[17].

سئل الشَّيخ ابن العثيمين عن طالب علم يريد أن يذهب مع إخوانه في الله لطلب العلم، وكان الحائل بينه وبين الذَّهاب معهم والده وأمُّه، فما الحكم في خروج هذا الطَّالب؟

فأجاب: هذا الطَّالب إن كان هناك ضرورة لبقائه عندهم فهذا أفضل، مع أنَّه يمكنه أن يبقى عندهم مع طلب العلم؛ لأنَّ برَّ الوالدين مقدَّم على الجهاد في سبيل الله، والعلم من الجهاد، وبالتَّالي يكون برُّ الوالدين مقدَّمًا عليه، إذا كانا في حاجة إليه، وأمَّا إذا لم يكونا في حاجة إليه، ويتمكَّن من طلب العلم أكثر إذا خرج فلا حرج أن يخرج في طلب العلم في هذه الحال؛ ولكنَّه مع هذا لا ينسى حقَّ الوالدين في الرُّجوع إليهما، وأمَّا إذا علم كراهة الوالدين للعلم الشَّرعي فهؤلاء لا طاعة لهما، ولا ينبغي أن يستأذن منهما إذا خرج، فإنَّ الحامل لهما كراهة العلم الشَّرعي»[18].

---

(14) رواه مسلم (2549).

(15) «شرح مسلم» (339/16).

(16) رواه البيهقي في «السنن الكبرى» (25/9)، وانظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (3248).

(17) «الموسوعة الفقهية» (83/2).

(18) كتاب «العلم» جمع فهد السليمان (ص149).

خامسًا ـ اجتياحهما مال الولد:

عن عَمْرو بن شعيب عن أبيه عن جدِّه أنَّ رجلاً أتى النَّبيَّ ﷺ فقال: يا رسول الله، إنَّ لي مالاً وولدًا، وإنَّ والدي يجتاح مالي، قال: «**أَنْتَ وَمَالُكَ لِوَالِدِكَ، إِنَّ أَوْلَادَكُمْ مِنْ أَطْيَبِ كَسْبِكُمْ فَكُلُوا مِنْ كَسْبِ أَوْلَادِكُمْ**»[19].

ومعنى يجتاح من الاجتياح، وهو الاستئصال، وفي بعض الرِّوايات: يحتاج من الاحتياج.

قال السندي: «...ولم يرخِّص له في ترك النَّفقة عليه، وقال: «**أَنْتَ وَمَالُكَ لِوَالِدِكَ**»، على معنى أنَّه إذا احتاج إلى مالك، أخذ منك قدر الحاجة، كما يأخذ من مال نفسه، وإذا لم يكن لك مال، وكان لك كسب لزمك أن تكتسب وتنفق عليه، فأمَّا أن يكون أراد به إباحة ماله حتَّى يجتاحه ويأتي عليه لا على هذا الوجه، فلا أعلم أحدًا ذهب إليه من الفقهاء»[20].

وقد ذكر ابن عثيمين لجواز أخذ الأب مال ولده خمسة شروط.

أوَّلاً: أن لا يضرَّ الابن.

ثانيًا: ألاَّ يحتاجه.

ثالثًا: أن لا يكون الولد أعلى منه في الدِّين.

(19) رواه أبو داود (3530)، وابن ماجه (2292).

(20) «حاشية السندي على ابن ماجه» (2/43)، انظر: «معالم السنن» (5/13)، «الآداب الشرعية» (1/464).

رابعًا: أن يكون ولده حرًّا.

خامسًا: أن لا يأخذه لولد آخر.

سادسًا ـ طاعتهما في تناول المشتبه.

وينبني هذا على جواز تناوله من حيث الجملة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إذا اختلط الحلال بالحرام فهو على ثلاثة أقسام:

الأوَّل: أن يكون الحرام هو الغالب، ففي هذه الحالة يحرم تناوله.

الثاني: أن يكون الحلال هو الغالب، فلا يحكم بتحريمه؛ لأنَّ الأكثر يقوم مقام الكلِّ.

الثالث: أن يختلط ففي هذه الحالة أيضًا لا يحكم بالتَّحريم»[21].

وعلى هذا يقدَّم في القسم الثاني والثالث طاعة الوالدين؛ لأنَّ ترك ما اختلط في الحالتين ورع وليس بحتم، وطاعة الوالدين واجبة.

قال الغزالي: «...حتَّى إذا كانا يتنغَّصان بانفرادك عنهما بالطَّعام فعليك أن تأكل معهما؛ لأنَّ ترك الشُّبهة ورع، ورضا الوالدين حَتْمٌ»[22].

سابعًا ـ منعهما الولدَ من النَّوافل:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

(21) «مجموع الفتاوى» (29/151)، وانظر: «الآداب الشرعية» لابن مفلح (1/468 ـ 469)، و«جامع العلوم والحكم» (1/200) فما بعدها.

(22) «الإحياء» (2/218).

«نَادَتْ امْرَأَةٌ ابْنَهَا وَهُوَ فِي صَوْمَعَةٍ، فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ، قَالَ: اللَّهُمَّ أُمِّي وَصَلَاتِي، قَالَتْ: يَا جُرَيْجُ، قَالَ: اللَّهُمَّ أُمِّي وَصَلَاتِي، قَالَتْ: يَا جُرَيْجُ، قَالَ: اللَّهُمَّ أُمِّي وَصَلَاتِي، قَالَتْ: اللَّهُمَّ لاَ يَمُوتُ جُرَيْجٌ حَتَّى يَنْظُرَ فِي وُجُوهِ الْمَيَامِسِ، وَكَانَتْ تَأْوِي إِلَى صَوْمَعَتِهِ رَاعِيَةٌ تَرْعَى الغَنَمَ، فَوَلَدَتْ فَقِيلَ لَهَا: مِمَّنْ هَذَا الوَلَدُ؟ قَالَتْ: مِنْ جُرَيْجٍ نَزَلَ مِنْ صَوْمَعَتِهِ، قَالَ جُرَيْجٌ: أَيْنَ هَذِهِ الَّتِي تَزْعُمُ أَنَّ وَلَدَهَا لِي، قَالَ: يَا بابوس مَنْ أَبُوكَ؟ قَالَ: رَاعِي الغَنَمِ»[23].

ففي الحديث تقديم طاعة الوالدة على صلاة التَّطوُّع، وأنَّها إذا دعت ولدها في الصَّلاة فإنَّه يقطع صلاته ويجيبها، وإنَّما تقدَّم طاعتها على التَّطوُّع؛ لأنَّ طاعتها واجبة، وهذا يشترك فيه الوالدان.

مع أنَّه لا ينبغي للوالدين أن ينهيا الولد عمَّا لا ضَرَرَ فيه عليهما كما سبق بيانه.

قال شيخ الإسلام: «وأمَّا طاعتهما في ترك ما هو مسنون فالأقيس وجوبها، وينبغي لهما أن لا ينهياه عمَّا هو مندوب.

قال أحمد: وإذا أمره أبواه أن لا يصلّي إلاَّ المكتوبة يداريهما ويصلّي، ولا أحبُّ أن ينهياه»[24].

ثامنًا ـ طاعة الوالد الكافر:

قال الله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾ [الممتحنة: 8]، ففي هذه الآية جواز برِّ الكفَّار إذا لم ينصبوا الحرب للمسلمين، وكانت الموالاة منقطعة، والوالدان أحقُّ من دخل في هذا العموم، فعن أسماء بنت أبي بكر قالت: أتتني أمِّي راغبة في عهد النَّبيِّ ﷺ (أي الهدنة) فسألت النَّبيَّ ﷺ: أفأصلها؟ قال: «**نَعَمْ**»[25].

وقولها راغبة: أي راغبة في شيء تأخذه، وهي على شركها، ويؤخذ من هذا وجوب نفقة الأب الكافر والأمِّ الكافرة وإن كان الولد مسلمًا.

وقد قال النَّبيُّ ﷺ لعبد الله بن عبد الله بن أُبيّ ابن سلول حينما استأذنه في قتل أبيه وكان رأسًا في النِّفاق: «**لاَ، وَلَكِنْ بِرَّ أَبَاكَ، وَأَحْسِنْ صُحْبَتَهُ**»[26].

أخيرًا، إن كنتَ أبًا لابن عاقٍّ يبذل الأذى ويكفُّ النَّدى، إنَّ حرَّكته فكأنَّما حرَّكت جيفةً، وإن تركته فعلى حذرٍ وخيفة، فاعلم أنَّ هذا قد يكون بسبب تفريط منك في تأديبه، أو عقوق منك لوالديك عُوجلت بجزائه.

فإن كان الأوَّل فإنَّ وصيَّة الله للآباء بأولادهم سابقة على وصيَّة الأولاد بآبائهم، فمن أهمل تعليم ولده ما ينفعه وتركه سدى فقد أساء إليه غاية

(23) رواه البخاري (1206).
(24) «غذاء الألباب» (1/295).
(25) رواه البخاري (3012)، ومسلم (2371).
(26) «السلسلة الصحيحة» رقم (3223).

الإساءة، وأكثر الأولاد إنَّما جاء فسادهم من قبل الآباء وإهمالهم لهم، وترك تعليمهم فرائض الدِّين وسننه، فأضاعوهم صغارًا، فلم ينتفعوا بأنفسهم، ولم ينفعوا آباءهم كبارًا، كما عاتب بعضهم ولده على العقوق، فقال: يا أبت عققتني صغيرًا فعققتك كبيرًا، وأضعتني وليدًا، فأضعتك شيخًا.

وعن ثابت البناني قال: «رأيت رجلاً يضرب أباه في موضع فقيل له: ما هذا؟ فقال الأب: خلُّوا عنه فإنِّي كنت أضرب أبي في هذا الموضع، فابتليت بابني يضربني في هذا الموضع»[27].

فإن كان حالك حال هذا الأب فتدارك، قال النَّبيُّ ﷺ: «**رغِم أنفُ، ثُمَّ رَغِمَ أنْفُ، ثُمَّ رَغِمَ أنْفُ**» قيل: مَن يا رَسُولَ اللَّه؟ قالَ: «**مَنْ أدْرَكَ أبَوِيهِ عِنْدَ الكِبَرِ، أحَدهُما أوْ كِلِيهمَا فَلَمْ يَدْخُلِ الجَنَّةَ**»[28].

وإن كنت واريتهما الثَّرى، ونزف الفؤاد دمًا من الأسى فاستحال دمعًا إذ جرى

وليس الذي يجري من العين دمعها

ولكنها روح تذوب فتقطر

فلا تجعل هذا البلى آخر العهد بهما، بل أتبع رحيلهما بإيصال المعروف إليهما.

قال بعض العلماء: «إن سأل سائل: إنَّ الوالدين إذا ماتا ساخطين على الولد هل يمكنه أن يرضيهما بعد وفاتهما، قيل له: بل يرضيهما بثلاثة أشياء:

أوَّلها: أن يكون الولد صالحًا في نفسه؛ لأنَّه لا يكون شيء أحبَّ إليهما من صلاحه، **والثاني:** أن يصل قرابتهما وأصدقاءهما، **والثالث:** أن يستغفر لهما ويدعو لهما ويتصدَّق عنهما»[29].

وهذا كلُّه ثابت في السُّنَّة:

عن أبي هريرة أنَّ رسول اللَّه ﷺ قال: «**إذَا مَاتَ العَبْدُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إلاَّ مِنْ ثَلاَثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**»[30].

وعنه رضي الله عنه قال: «ترفع للميِّت بعد موته درجته فيقول: أيّ ربِّ أيّ شيء هذا؟ فيقال: ولدك استغفر لك»[31].

قال ابن عثيمين: «هل الأولى والأفضل للإنسان أن يتصدَّق عن والديه، أو يصلِّي عنهما، أو يصوم عنهما بعد موتهما، أو الأفضل الدُّعاء لهما.

الجواب: الأفضل الدُّعاء لهما عملاً بتوجيه الرَّسول ﷺ وذلك حين قال: «**إذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ...**» الحديث[32].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إنَ أَبَرَّ البِرِّ أَنْ يَصِلَ الرَّجُلُ أَهْلَ ودِّ أَبِيهِ**».

هذا ما أمكن جمعه على وجه الاختصار، وهو للحَصيف الأريب مُغْنٍ عن الكثير من الأخبار، فعِ وارعَوِ لعلَّك تدرك مرتبة البارِّين الأخيار.

(27) «تحفة المودود»، «غذاء الألباب» (287/1).

(28) رواه مسلم (6674).

(29) «غذاء الألباب» (303/1).

(30) «صحيح الأدب المفرد» (28).

(31) «صحيح الأدب المفرد» (27).

(32) «صحيح الأدب المفرد» (29).

عبارات عقدية فاسدة

عمر الحاج مسعود

❖ **رَانَا كِمَا يْحَبْ رَبِّي:**

إذا قيل لبعض النَّاس: كيف حالك؟ أجاب بهذه العبارة، وقال: «رَانَا كِمَا يْحَبْ رَبِّي»، ويقال هذا الكلام كذلك للاعتذار عن مخالفات وخصومات العباد، وفساد حال البلاد، ويقال: «هَكْذَا حَبْ رَبِّي وَاشْ نْدِيرُو».

ولا تصحُّ هذه العبارة؛ لأنَّ العبد قد يكون في حالةٍ أرادها الله قدرًا لحكمةٍ بالغةٍ؛ ولكن لم يُرِدْها شرعًا، كأن يكون في غفلة عن الواجبات وتكاسلٍ عن أداء الحقوق، قاطعًا رَحِمَهُ معاديًا جارَه، وقد تكون الأمَّة في جهل وظلم وعصيان لله ربِّ العباد، وفوضى وهَرَجٍ وفساد.

فالله أراد هذا قدرًا ولم يردْه شرعًا؛ لأنَّه لا يحبُّه، بل يبغضه وينهى عنه.

ولا يلزم من إرادته الشَّيءَ أن يكون محبوبًا له، ولا يلزم من كراهيَّته الشَّيءَ أن لا يكون مرادًا له بالإرادة الكونيَّة، بل يكره ـ عزَّ وجلَّ ـ الشَّيء ويريده بالإرادة الكونيَّة، ولا يريده بالإرادة الشَّرعية[1].

ولعلَّ المقصود بقولهم: «رانا كما يحب ربِّي» هو: «كما يشاء»، أو «كما يريد قدرًا».

وينبغي أن يُعلم أنَّ الإرادةَ نوعان[2]:

النوع الأول: إرادةٌ كونيَّة قدريَّة، وهي مرادفة للمشيئة فـ «أراد» بمعنى «شاء»، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكنْ.

النَّوع الثاني: إرادة شرعيَّة دينيَّة، وهي

(1) انظر: «شرح الواسطية» للعثيمين (2/216).

(2) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (8/476 ـ 477)، «مدارج السالكين» لابن القيم (1/251)، «شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العز (1/79)، «شرح الواسطية» للعثيمين (1/222 ـ 223).

مرادفة للمحبَّة فـ «أراد» بمعنى: «أحبَّ».

والفرق بينهما:

1 ـ أنَّ الإرادة الكونيَّة يلزم منها وقوع المراد، والشَّرعية لا يلزم وقوعه.

2 ـ الإرادة الشَّرعية تختصُّ بما يحبُّه الله ويرضاه، والكونيَّة عامَّة فيما يحبُّه وفيما يبغضه ويكرهه.

فقول القائل: «رانا كما يحب ربِّي» لا يصحُّ؛ لأنَّ الله لا يحبُّ إلاَّ الإيمان والتَّقوى والعمل الصَّالح والبر والإحسان.

قال الله تعالى: ﴿**وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾**﴾ [البقرة: 195]، وقال: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾**﴾ [التوبة: 7]، وقال: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾**﴾ [البقرة: 222]، وقال: ﴿**وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾**﴾ [الحجرات: 9].

وقال ﷺ: «**إنَّ اللهَ يُحِبُّ العَبْدَ التَّقِيَّ الغَنِيَّ الخَفِيَّ**»[3]، وقال: «**إنَّ اللهَ يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُخَصُهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ تُؤْتَى مَعْصِيَتُهُ**»[4].

ولا يحب ـ عزَّ وجلَّ ـ الكفرَ والفساد والطُّغيان: قال تعالى: ﴿**فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾**﴾ [آل عمران: 32]، وقال: ﴿**وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾**﴾ [البقرة: 205] وقال: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾**﴾ [الأنفال: 58].

وقال ﷺ: «**أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَى اللهِ ثَلاثَةٌ: مُلْحِدٌ فِي الحَرَمِ، وَمُبْتَغٍ فِي الإِسْلامِ سُنَّةَ الجَاهِلِيَّةِ، ومُطَّلِبُ دَمِ امْرِئٍ بِغَيْرِ حقٍّ لِيُهَرِيقَ دَمَهُ**»[5]، وقال: «**أَحَبُّ البِلاَدِ إِلَى اللهِ مَسَاجِدُهَا وَأَبْغَضُ البِلاَدِ إِلَى اللهِ أَسْوَاقُهَا**»[6].

فَفَرْقٌ بين محبَّته ـ عزَّ وجلَّ ـ ورضاه، وبين مشيئته وإرادته الكونيَّة، فمن فرَّق بينهما اهتدى وسلِمَ، ومن سوَّى بينهما ضلَّ وهَلَكَ.

قال ابن القيِّم: «ومنشأ الضَّلال في هذا الباب: من التَّسوية بينهما أو اعتقاد تلازمهما»[7].

◆ مَا يَرْحَمْ مَا يْخَلِّي رَحْمَةْ رَبِّي تَنْزَلْ:

تقال هذه العبارة في حقِّ الشِّرِّير اللَّئيم البخيل الذي لا يكون منه إلاَّ الفساد والشَّرَّ ولا يصل منه إلى النَّاس رحمةٌ ولا خيرٌ؛ فكأنَّه

(3) رواه مسلم (2965).

(4) رواه أحمد (5866) وغيره، وهو صحيح، انظر: «الإرواء» رقم (564).

(5) رواه البخاري (6882).

(6) رواه مسلم (671).

(7) «مدارج السَّالكين» (1/251).

يُمسك رحمةَ الله، ومقصود القائلين لها أنَّه بلغ النِّهاية في الشَّرِّ والغاية في البخل؛ لكن العبارة فيها سوء أدب مع الله وصفاته؛ لأنَّ رحمته - عزَّ وجلَّ - وَسِعَتْ كلَّ شيء، ولا أحد يقدر أن يمسكها أو يقسمها، قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ [فاطر: 2]، ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ [الزمر: 38]، ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: 32].

وقال النَّبيُّ ﷺ في وصيَّته لعبد الله ابن عبَّاس: «**اعلَمْ أنَّ الأمَّة لَو اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بشَيْءٍ لمْ يَنْفَعُوكَ إلاَّ بشيءٍ قَد كَتَبَهُ اللَّهُ لكَ، ولو اجتمعوا على أن يضرُّوك بشيء لم يضرُّوك إلاَّ بشيء قد كتبه الله عليك**»[8].

◆ حَبِّبتْ تخَرِّجْنِي مِنْ رَحْمَةْ رَبِّي:

تقال هذه العبارة في حالة الخصام والغضب والضّيق، وهي تدلُّ على الجهل والطّيش وقلَّة الصبر، إنَّه لا أحد يقدر على أن يَخْرج - أو يُخْرج غيرَه - من رحمةِ الله العامَّة الَّتي شملت جميع المخلوقات وعمَّت الأراضين والسَّماوات، يقول حملة العرش ومن حوله كما قال الله تعالى عنهم: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: 7].

فرحمته تَصِلُ إلى كلِّ شيء يصلُ إليه علمُه، وعلمه يصلُ إلى كلِّ شيء، وهذه هي الرَّحمة العامَّة[9].

أمَّا رحمته الخاصَّة فهي لأهل الإيمان والتَّقوى والعمل الصالح، وقد تضمَّنتها مع طلب المغفرة أكثرُ أدعية القرآن والسُّنَّة، كما في أواخر سورة البقرة: ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾ [البقرة: 286]، وقال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [المؤمنون: 118].

وكان الرَّجل إذا أسلم علَّمه النَّبيُّ ﷺ الصَّلاة ثمَّ أمره أن يدعوَ بهؤلاء الكلمات: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي وَاهْدِنِي وَعَافِنِي وَارْزُقْنِي**»[10].

إنَّ سعادة الدُّنيا والآخرة لا تكون إلاَّ بمغفرة

(8) رواه أحمد (2669) والترمذي (2516)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

(9) انظر «شرح الواسطية» للعثيمين (1/ 249).

(10) رواه مسلم (2697).

الله ورحمته، فتزول بالمغفرة جميعُ المكروهات وتحصل بالرَّحمة جميعُ المحبوبات.

قال آدم وزوجُه ـ عليهما السَّلام ـ: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف: 23].

وقال النَّبيُّ ﷺ: «**لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ الجَنَّةَ**»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله! قال: «**وَلاَ أَنَا إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ مِنْهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ**»[11].

فالمؤمن حقًّا لا يستغني عن هذه الرَّحمة طَرْفَةَ عَيْنٍ.

وعن أبي بَكْرَةَ رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**دَعَوَاتُ المَكْرُوبِ: اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو فَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ**»[12].

والخروج من هذه الرَّحمة الخاصَّة يعني ـ عياذًا بالله ـ الخروج إلى الكُفْرِ والفسوق والعصيان وغضب الملك الدَّيَّان، والمؤمن يَكْرَهُ ذلك كما يكره أنْ يُلقى في النَّار.

(11) رواه البخاري (5673) ومسلم (2816).

(12) حديث حسن، أخرجه أحمد (20702) وأبو داود (5090) وابن حبان (970)، انظر «صحيح موارد الظمآن» للألباني (2370).

◆ **فُلاَنْ مَا يَهْدِيهشْ الله، مَايَسْتَحَقّشْ الهِدَايَة:**

تقال هذه العبارة في حق بعض الظالمين، وتطلق على بعض المفسدين، فإذا قلت نسأل الله أن يهديهم قال لك بعض الناس: هَاذوك ما يَهْدِيهُمْش الله؟ (لا يهديهم الله)، مايَسْتَحَقُّوش الهداية (لا يستحقون الهداية)، هَاذوك يْرُوحُو لنَّار (هؤلاء مصيرهم النار)، إن هذه العبارات ـ وما شابهها ـ فيها مخالفات كثيرة ومحظورات خطيرة منها:

1 ـ القول على الله بغير علم:

وهو أعظم الذنوب وأخطرها، قال الله تعالى ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: 33]، فالآية الكريمة ذكرت المحرمات مرتبة من حيث خطورتها وشناعتها من الأدنى إلى الأعلى، فأدناها الفواحش، وأعلاها القول على الله بغير علم[13].

ثم ما يدرينا لعل ذلك الظالم يتوب ويعود إلى الغفور الودود، فكم من مشرك صار من الموحدين، وكم من مجرم أصبح من المتقين،

(13) انظر: «إعلام الموقعين» لابن القيم (38/1).

وكم من مفسد دخل زمرة المصلحين، وكم من ضالة صارت من الصالحات، وكم من منحرفة أصبحت من القانتات، والله أعلم حيث يجعل فضله ورحمته، يهدي من يشاء ويضل من يشاء وهو العليم الحكيم.

إن المؤمن العاقل إذا رأى العصاة وما هم عليه حمد الله على نعمة الهداية ورجاها لهم وذكر قول الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: 94]، وعن جندب أن رسول الله ﷺ حدث: «**أَنَّ رَجُلاً قَالَ: وَاللهِ لاَ يَغْفِرُ اللهُ لِفُلاَنٍ، وَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لاَ أَغْفِرَ لِفُلاَنٍ، فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِفُلاَنٍ وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ**»، أو كما قال[14]، فهذا الرجل تألى - أي حلف - على الله أن لا يغفر لفلان، والله غفر له وعاقب الحالف وأحبط عمله؛ لأنه لم يكن مبنيا على الإخلاص والمتابعة، وإنما كان مبنيا على الرياء والعجب والبدعة.

2 - سوء الظن بالناس واحتقارهم:

فظن من قال فيهم ذلك أنهم لا يتوبون ولا إلى ربهم يرجعون، ونطق بذلك على سبيل الاحتقار والتعيير، والتقنيط والتنفير، يقول النبي ﷺ: «**إِذَا قَالَ الرَّجُلُ: هَلَكَ النَّاسُ، فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ**»[15]، أهلكهُم بالضمِّ على الأشهر، ويجوز الفتح، أي أشدهم هلاكا وأكثرهم ضلالا، وأسوؤهم حالا[16].

إن من كان ذا فقه وعلم، وصبر وحلم، علم أنَّ العُصاة يجب أن يُنصَحُوا، والغافلين ينبغي أن يُنبَّهوا، والهالكين يفرض أن يُنقَذوا.

3 - تزكية للنفس وإعجاب بالعمل:

فيظن قائل تلك العبارة أنه خير من أولئك العصاة، وأنه سالم مما وقعوا فيه، ناج مما زين لهم، فيدفعه هذا إلى العجب والبطر ويسوقه إلى الزهو والكبر، وهذا نهاية الجهل والهلاك، قال النبي ﷺ: «**ثَلاَثٌ مُهْلِكَاتٌ: شُحٌّ مُطَاعٌ، وَهَوًى مُتَّبَعٌ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ**»[17].

إن العاقل لا يزكي نفسه، ولا يعجب بعمله ولا يتكبر على إخوانه، قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ۝٣٢﴾ [النجم: 32].

4 - غلظة وشدة وقسوة في غير محلها:

وربما آل الأمر - بغير حق - إلى تكفير

(14) رواه مسلم (2621).

(15) رواه مسلم (2623).

(16) انظر: «شرح مسلم» للنووي (16/175 - 176).

(17) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (731)، وهو حسن بمجموع طرقه، انظر: «الصحيحة» للألباني (1802).

أولئك العصاة والمجرمين وإخراجهم من الدين، وهذه من صفات الخوارج الذين ليس لهم رحمة على المؤمنين، ولا شفقة على المذنبين، ولا اتباع لأهل السنة والجماعة الذين قال فيهم ابن تيمية: «يتبعون الحق ويرحمون الخلق»(18).

فالسني المهتدي: يرحم ويستر، وينصح ويبشر، والمبتدع الخارجي: ينتحل ويعير، وينفض وينفر.

◆ خَرَجْتْ مِنَ المِلّة أو مَانِيشْ مُسْلِمْ، إن فعلت كذا أو إن لم أفعل كذا:

يريد بعض الناس تأكيد الشيء بصورة وكيفية لا شك فيها ولا ريب - في زعمه - فيقول مثل هذه العبارات التي هي من المنكر والزور، ومعنى ذلك: أنه كما لا يخرج من الدين ولا يتبرأ منه فإنه لا يفعل ذلك الشيء، أو يفعله، لكن المسكين قد تغلبه نفسه ويقهره شيطانه، فينقض عهده، وينكث يمينه، فيقع في ورطة عظيمة، وهوة سحيقة، وقد حذر النبي ﷺ من هذه العبارات فقال: «**مَنْ حلَفَ فقَالَ: إنِّي بَرِيءٌ مِنَ الإسْلاَمِ، فَإنْ كانَ كاذِبًا فهُوَ كمَا قَالَ، وإن كانَ صادِقًا فلَنْ يَرْجِعَ إلَى الإسْلاَمِ سَالمًا**»(19).

إني بريء من الإسلام، يعني إن فعلت أو لم أفعل كذا، إن كان كاذبا في حلفه، فهو كما قال، يعني يكون قد تبرأ من الدين وتخلى عنه، وإن كان صادقا في حلفه، لم يعد سالما بل يكون على شفا جرف هار.

يبتلى بالفتن والشبهات والشهوات جزاء وفاقا، فالحذر الحذر من مثل هذه العبارات، نسأل الله العافية والسلامة والموت على الإسلام والسنة.

والحمد لله رب العالمين.

(18) «مجموع الفتاوى» (279/3).

(19) رواه أحمد (23394) وأبو داود (3253)، وغيرهما، وهو صحيح، انظر: «الإرواء» (2576).

التقوى مخرج من كل همٍّ

* **قال ابن الجوزي** رحمه الله:

«ضاق بي أمر أوجب غمًّا لازمًا دائمًا، وأخذتُ أبالغ في الفِكر في الخلاص من هذه الهموم بكلِّ حيلة وبكلِّ وجه، فما رأيت طريقًا للخلاص، فعرضت لي هذه الآية: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢﴾ [الطلاق: 2]، فعلمت أنَّ التَّقوى سببٌ للمخرَج من كلِّ غمٍّ، فما كان إلاَّ أن هممتُ بتحقيق التَّقوى فوجدتُ المخرَج.

فلا ينبغي لمخلوقٍ أن يتوكَّل أو يتسبَّب أو يتفكَّر إلاَّ في طاعة الله تعالى وامتثال أمره؛ فإنَّ ذلك سببٌ لكلِّ منغلق».

[«صيد الخاطر» (ص267)]

* * *

التفقه في الكتاب والسنة

* **قَالَ ابْنُ عَوْنٍ** رحمه الله:

«ثَلاَثٌ أُحِبُّهُنَّ لِنَفْسِي وَلإِخْوَانِي: هَذِهِ السُّنَّةُ أَنْ يَتَعَلَّمُوهَا وَيَسْأَلُوا عَنْهَا، وَالْقُرْآنُ أَنْ يَتَفَهَّمُوهُ وَيَسْأَلُوا عَنْهُ، وَيَدَعُوا النَّاسَ إِلاَّ مِنْ خَيْرٍ».

رواه البخاري تعليقا كتاب الاعتصام، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ

الحكمة في أن الأنبياء لا يورثون

* قال ﷺ: «**لا نُورَث، ما تَركناه صَدقة**».

* **قال النووي** رحمه الله:

«قال العلماء: والحِكْمَة فِي أَنَّ الأَنْبِيَاء - صَلَوَات اللَّه عَلَيْهِمْ - لا يُورَثُونَ أَنَّهُ لا يُؤْمَن أَنْ يَكُون فِي الوَرَثَة مَنْ يَتَمَنَّى مَوْته فَيَهْلِك، وَلِئَلاَّ يُظَنَّ بِهِمْ الرَّغْبَة فِي الدُّنْيَا لِوَارِثِهِم فَيَهْلِك الظَّانُّ، وَيَنْفِر النَّاس عَنْهُم».

[«شرح صحيح مسلم» (12/74)]

عفة العلماء

* **قال الحافظ أبو نعيم:** حدَّثنا أبو عيسى ابن محمَّد الجُريجي قال: سمعتُ عبد الله ابن حنبل يقول: «كنتُ أسمع أبي كثيرًا يقول في سُجوده: اللَّهم كما صُنتَ وجهي عن السُّجودِ لغيرك فصُنْ وَجهي عَن المسألَةِ لغَيرك».

[«حلية الأولياء» (9/233)]

صدق الالتجاء إلى الله

* **عن البرقي، قال:** «رأيت امرأة بالبادية، وقد جاء البَرَد فذهب بزرع كان لها، فجاء النَّاس يعزُّونها، فرفعت طرفها إلى السَّماء، وقالت: اللَّهمَّ أنت المأمول لأحسن الخلف، وبيدك التَّعويض عما تلف، فافعل بنا ما أنت أهله، فإنَّ أرزاقنا عليك، وآمالنا مصروفة إليك.

قال: فلم أبرح، حتَّى جاء رجل من مياسير البلد من فضلاء النَّاس، فَحُدِّث بما كان، فوهب لها خمسمائة دينار».

[«الفرج بعد الشدة» للتنُّوخي (1/181)]

الاهتمام بالسَّريرة

* **يقول ابن الجوزي** رَحِمَهُ اللهُ:

«والله لقد رأيت من يكثر الصَّلاة والصَّوم والصَّمت ويتخشَّع في نفسه ولباسه والقلوب تنبو عنه وقدره في النُّفوس ليس بذلك ورأيت من يلبس فاخر الثِّياب وليس له كبير نفل ولا تخشع والقلوب تتهافت على محبته.

فتدبَّرت السَّبب فوجدته السَّريرة كما روي عن أنس بن مالك: أنَّه لم يكن له كبير صلاة وصوم وإنَّما كانت له سريرة.

فمن أصلح سريرتَه فاح عبيرُ فضلِه وعَبَقَت القلوبُ بنَشر طِيبه، فاللَّهَ اللَّهَ في السَّرائر فإنَّه ما ينفع مع فسادها صلاحُ ظاهرٍ.

[«صيد الخاطر» (ص287)]

* * *



❁ جزى الله خيرًا الأخ الفاضل أبا البراء الجزائري من ولاية عنَّابة على مراسلته لنا، ونشكره على تشجيعه لنا وفرحه وسروره بمجلّتنا؛ ونعتذر إليه على عدم نشر ما أرسله إلينا؛ لأنَّه لا يتوافق مع خطَّة المجلة.

❁ كما نشكر جزيلاً الأخ الكريم أبا حذيفة رابح قرقاش من الأربعطاش بولاية بومرداس على مؤازرته لنا وتشجيعه، ونسأل الله العظيم أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم.

❁ كما نتوجَّه بالشُّكر العميم إلى الأخ الودود الَّذي رمز لاسمه بـ (ب ـ ب) أبو عبد الله من مزغران بولاية مستغانم على اقتراحاته وعلى غَيرته على الدَّعوة إلى الله عزَّ وجلَّ في أرجاء هذا البلد الطيِّب، ونسأل الله لنا وله التَّوفيق والسَّداد.

❁ أما الأخت الفاضلة أم محمَّد من برج الكيفان بالجزائر، والَّتي أرسلت إلينا ببحث يتعلَّق بالتَّوحيد معناه وأنواعه وفضائله، فلها منَّا جزيل الشُّكر على ما بذلته في تحريره وكتابته وحسن فهمها؛ إلاَّ أنَّنا نعتذر لها على عدم إمكاننا نشره الآن، والله الموفق.

❁ كما جاءنا مقال بعنوان: «عبارات وألفاظ خاطئة» للأخ المكرَّم أبي نافع بشير بن بوجمعة بوشنة، من منطقة المنيعة بولاية غرداية أودع فيه جملة من العبارات الَّتي تجري على لسان الجزائريِّين وهي فاسدة عقديًّا على منوال ما سطَّرته يمين الشَّيخ عمر الحاج في ركن ألفاظ ومفاهيم في الميزان، ولعلنا ننشرها في أعداد قادمة إن شاء الله.

❁ إلى الأخ المكرَّم أبي أسامة سفيان بن عبد الله الجزائري، لقد سرَّنا كثيرًا اهتمامك بأمر الدَّعوة في هذا البلد الطيِّب، ونطمئنك أنَّ اقتراحاتك كلَّها مأخوذة في الحسبان عندنا، وهي آتية بالتَّدريج إن شاء الله، وما لا يدرك كلُّه لا يترك كلُّه، والله الموفِّق للجميع، وجزاك الله خيرًا.

❁ كما نشكر الأخ الودود فريد بالو أبو جهينة على محاولته الشِّعرية الَّتي تمثلت في قصيدة أرسلها إلى المجلَّة بعنوان «جزاء الضَّرير» والَّتي جاء في مطلعها:

إذا واجتهك أمور عسيرة
وكرب وهم وغمّ كثير
وكان البلاء في دنيا حقيرة
فصبرا وعده أمـرا يسـيـرا

وننصح أخانا أن يحكم قواعد اللُّغة والنَّحو قبل الولوج في إنشاء القصائد وكتابة الشِّعر، والله الموفَّق.

❁ والشُّكر أيضًا موصول إلى الأخ الكريم نور الدِّين طاهري، من بلديَّة البيُّوض ولاية النَّعامة على ورقته اللَّطيفة الَّتي أرسلها إلينا عن طريق البريد الإلكتروني، والَّتي تضمَّنت الوجوه الَّتي ذكرها العلماء في تحريم شرب الدُّخان.